تعيش فى روما منذ طلاقها من زوجها ، فلما ماتت فى أبريل ١٢١٣ تركت ولدها فى وصاية البابوية . وكان لهذا الوضع أثره البعيد فى تاريخ مملكة أرغون أيام خايمه الأول ، لأنها اعتُبرت إقطاعية تابعة للبابوية واعتُبرت حروبها مع المسلمين حروبا صليبية ، وكان البابا إنُسِنْتْ الثالث هو الذى تولى بنفسه رعاية شؤون الصبى خايمه حتى بلغ سن الرشد وتولى الملك ، وقد ندب البابا للوصاية على العرش رجلا من رجاله هو پدرو دِ بِنِڤِنْتُو دَيّان كنيسة سنتا ماريا دِ أكيرو ، فأقبل واستقر فى لاردة وعقد هدنة مع المسلمين ، وأناب عنه فى الحكم والوصاية على خايمه سانشو دوقَ پروڤنسة وكان ابناً لرامون بيرنجير الرابع.

وفى سنة ١٢١٨/٦١٥ بلغ خايمه سن الرشد ولقب بالأول ، وبدأ فى نفس السنة كفاحه الطويل ضد المسلمين ، فسار نحو بِنِشْكُلَه Péniscola واستغلها ، وكانت تلك أول ما سقط فى يده من توابع بلنسية . ثم حفزه نفر من تجار برشلونة ومندوب البابا ونفر من أشراف مملكته على غزو جزيرة ميورقة ، فجرد حملة من مائة فارس وألف راجل ، واعتبرت الحملة حملةً صليبية ، وتمكن من الاستيلاء على الجزيرة بأيسر جهد فى ١٤ صفر ٦٢١/ أول يناير ١٢٣٠ ، والمراجع النصرانية تذهب إلى أن الغزو تم قبل ذلك بشهر أى فى منتصف المحرم/٣١ ديسمبر من نفس السنة . وعلى سهولة هذا الفتح فقد رفع من شأن خايمه — أو « جاقم » كما يسميه ابن الأبار — إلى مصاف كبار الفاتحين ، وأصبح يلقب بالكونكيستادور أى الفاتح . ولم تسقط الجزيرة كلها بسقوط قاعدتها ، إذ استمرت الحرب هناك سنوات تم خلالها القضاء على كل مقاومة .

وعقب ذلك مباشرة اتجهت أنظار خايمه نحو بلنسية ، وقد حرضه على هذا أوجو فولكالكير Hugo Folcalquer رئيس فرسان الداوية فى مملكة أرغون ونفر من الأشراف ، فسار نحو منطقة بلنسية فى سنة ١٢٣٢ (٦٣٠ —

٦٣١ هـ) : واستولى على آره Ares ثم مُرِلّه Morella فى نفس السنة :

وفى شوال ٦٣٠/يوليو ١٢٣٣ استولى على بُريانة Burriana بعد حصار بالبر والبحر ، ثم أعاد إخضاع بنشكله وبُولْبِش Polpes وقسطليون Castellón وبريول Borriol وكويڤاس Cuevas وبين رومان Vinromá وألقلوطن Alcaluten وبيلافورنس Vilafornés ووصلت غارته إلى ضفاف نهر شقر وناحية البلاط Albalate . وفى سنة ٦٣٣/ ١٢٣٤ استولى على مُصارة بلنسية ، وفى العام التالى حاول الاستيلاء على قُليارة Cullera دون نجاح ولكنه ملك حصنين يشرفان على بقاع بلنسية هما مُنْكاده Montcada ومُشروس Museros .

وبعد ذلك بثلاث سنوات ، أى فى سنة ١٢٣٨ (٦٣٦ – ٦٣٧) ضرب معسكره بين بلنسية وقرية مجاورة لها تسمى جراو Grau وعول على ألا يريم حتى يستولى على البلد . وتدفقت إليه النجدات من شتى البلاد التابعة له ، بل أقبل لعونه مقاتلون من نربونة ونفر من فرسان قشتالة .

ويغلب على الظن أن ذلك الموضع الذى ضرب الملك خايمه معسكره عنده هو جبل أنيشة أو أنيجة الذى يسميه ابن عبد المنعم الحميرى عقبة أنيشة ويسمى فى النصوص الإسبانية إلبويش el Puig وتقوم عليه قرية تحمل نفس الاسم ، وتقع هذه العقبة على ٢٠ كيلو متراً شمالى بلنسية فى الطريق إلى مربيطرُ التى تعرف باسم سَجُونتو Sagunto . وأحس أبوجميل زيان بالخطر الداهم ، وانتهز فرصة ابتعاد الملك خايمه عن معسكره ، فخرج فى جمع عظيم من مقاتلى بلنسية فيهم نفر من الشيوخ والفقهاء ، ودارت بين الجانبين معركة عنيفة . وقد استبسل البلنسيون فى القتال ، ولكن أعداءهم أداروا عليهم خدعة كبيرة ، إذ أقبلت طائفة منهم من بعيد حاملة راية الملك وأشاعت أنه عاد بجيش كبير ، ففت ذلك فى عضد المدافعين عن بلدهم وأيقنوا بالهزيمة وأخذ الكثيرون فى الفرار . وفى هذه الفوضى استشهد من المسلمين كثيرون من بينهم أبو الربيع

سليمان بن سالم الكلاعى ، وكان قد بلغ السبعين من عمره ، ولكنه بقى فى الميدان إلى آخر المعركة ، وظل يثبّت الناس ويدعو الفارين إلى العودة حتى قتل ، وكان ذلك فى ٢٠ ذى الحجة ٦٣٤/١٣ أغسطس ١٢٣٧ . وكانت تلك آخر محاولة كبيرة قام بها البلنسيون لإنقاذ بلدهم .

ولم يحضر ابن الأبار هذه الواقعة ؛ إذ لو حضرها لقال ذلك ، فقد ذكرها فى « التكملة » وفى « الحلة » . وأحس أبو جميل زيان أنه لن يستطيع الثبات وحده ، فقرر إرسال سفارة إلى أبى زكريا الحفصى صاحب إفريقية (تونس) وندب لها ابن الأبار ، وتلك هى السفارة التى أنشد فيها ابن الأبار قصيدته المشهورة :

أدركْ بخيلك ، خيل الله ، أندلساً إن السبيل إلى منجاتها درسا

وهى قصيدة طويلة فيها من التكلف ما يكاد يصرف قارئها عن الحال المحزن الذى قيلت فيه ، ولكنها على أى حال حققت الهدف من إنشادها ، فقد تحمس أبو زكريا وأرسل إلى بلنسية بضع سفن مشحونة بالمال والعتاد والزاد .

وكان خايمه قد ضيق الحصار حول بلنسية فى أثناء ذلك ، ووصل الأسطول الحفصى وحاول النزول فى موضع جراو قرب بلنسية فى ٤ محرم ٦٣٦/ ١٨ أغسطس ١٢٣٨ ، ولكنه وجد الموضع حافلا بجند النصارى فأرسل قائد الحملة أبو يحيى بن أبى حفص عمر الهنتاتى المعروف بالشهيد إلى أبى زكريا الحفصى يعلمه بالحال واتجه هو بالسفن إلى دانية وأرسى فيها فى ١٢ محرم ٦٣٦/ ٢٦ أغسطس ١٢٣٨ وترك لأهلها الطعام والسلاح اللذين كان يحملهما ، أما المال فقد عاد به إذ لم يجد من يتسلمه منه . ومن الغريب أن أبا بكر عزيز بن أبى مروان بن خطاب الذى سيترجم له ابن الأبار فى الحلة بايع لنفسه على مرسية فى نفس اليوم الذى وصل فيه الأسطول الحفصى إلى جراو ولقب نفسه بضياء السنة وعلى مسافة قصيرة منه بلد إسلامى يحتضر ! ولو فى هذا الرجل ومن حوله

من السنة أثارة لخف لنجدة إخوانه ، ولكن إلى هذه الحال من سخف العقول وصل الناس فى تلك الأيام ، والدول لا تسقط عن قلة عدد وإنما عن سقوط الهمم وضياع النخوة وموت الإحساس . ومما يستلفت النظر ويدعو إلى الاعتبار أن لسان الدين بن الخطيب سخر من ابن خطاب هذا وقال إنه قبل الإمرة بمرسية « مع قطع صبيّ المهد ورضيع الثدى بسوء عقبى من يتحمل ذلك يومئذ » ، وابن الخطيب ذاته سيزج بنفسه مهالك ومعاطب ومطامع يقطع نفس « صبى المهد ورضيع الثدى » بسوء عقباها ، ومع هذا لم يذكر ولم يتعظ ، وانتهى بنفسه إلى مصرع شبيه بمصرع ابن خطاب.

ويذهب ابن الخطيب إلى أن الحصار طال حتى « نفدت الأقوات واستولى الجوع وضعفت القوى وأكلت الجلود والزقوق » ، والواقع أن الحصار لم يطل حتى بلغت الحال هذا المبلغ ، ولكن القتال كان ضارياً عنيفاً وخاصة بعد معركة أنيشة ، ثم إن فرقاً من فرسان أرغون كانت لا تكف عن الغارة على البلد وانتساف ما حوله من معسكرها عند عقبة أنيشة ، وكانت أعدادهم تتزايد يوماً بعد يوم حتى أصبح معسكر ملك أرغون كأنه مدينة كبيرة خف إليها التجار من كل صوب ، وقد أتى بعضهم من مونبلييه ، وأخيراً استقر رأى أبى جميل زيان على التسليم ، وتم ذلك فى ١٧ صفر ٦٣٦/ سبتمبر ١٢٣٨ ، وقد اشترك ابن الأبار فى المفاوضات وكتب بنفسه العقد كما حكى فى « الحلة » ؛ وقد نص الاتفاق على أن يغادر من أراد من المسلمين بلده خلال ٢٠ يوما بأمواله وأسبابه ، « وابتدئ بضعفة الناس ، فسُيِّروا فى البحر إلى نواحى دانية ، واتصل انتقال سائرهم براً وبحراً ، وصبيحة يوم الجمعة ١٧ من صفر المذكور كان خروج أبى جميل بأهله من القصر فى طائفة يسيرة أقامت معه ، وعند ذلك استولى عليها الروم » .

استقر أبو جميل زيان وابن الأبار معه فى دانية ، ويبدو أن ابن الأبار حاول أن يجد عملا عند بعض الرؤساء فيما بقى من مدن الأندلس ، فقد أورد

المقرى فى « أزهار الرياض » رسائل منه إلى بعضهم (٣/٢١٦–٢٢١) ، ولكنه لم يوفق ، فعول على مفارقة الأندلس جملة إلى إفريقية والتماس الأمان بلد ذاع له فيه صيت منذ زيارته الأولى ، وقد فعل فعله أبو المطرف بن عميرة وأبو الحجاج يوسف البياسى وغيرهم كثيرون ، ولم يكن الأندلس قد ضاع كله ولا انقطع منه الرجاء ، ولكن هكذا كان تصرف الكثير من علمائه وقادة السياسة والرأى فيه : نجوا بأنفسهم مخلفين الصغار والضعفاء وأهل الأرياف والمدن ، وهناك فى ظلال الأمن والدعة طفقوا يكتبون مراثى نثرية أو شعرية يعبرون فيها عن أسف متكلف، وليس هناك أبعد عن الصدق من هذه المكاتبات المنظومة أو المنثورة بين ابن الأبار وأبى المطرف بن عميرة فى رثاء بلنسية .

أما أبو جميل زيان فقد تمهد له الأمر فى دانية ، ولكن الملك خايمه اتجه إلى الجنوب فاستولى على كَنْدِية Gandía فخاف أبو جُميل وأرسل إليه يعرض تسليم لَقَنْتْ Alicante فى مقابل تنازل الملك عن جزيرة ميورقة ، فرفض خايمه لأن الاتفاق كان قد تم بينه وبين ملك قشتالة على أن تكون بلنسية آخر ما يستولى عليه من بلاد المسلمين ، والباقى من نصيب قشتالة . ثم حاصر شاطبة حصاراً قصيراً وأقلع عنها عائداً إلى مونبلييه .

وأقام أبو جميل رئيساً لدانية ، وما زال يدبر وهو فيها لرئيس مرسية أبى بكر عُزيز بن أبى مروان بن خطاب ، حتى ثار به الناس وبايعوا لأبى جميل ، ثم قُتل ابن خطاب فى رمضان سنة ٦٣٦/أبريل ١٢٣٩ فأصبح أبو جميل رئيس دانية ومرسية ، وظل فى الأولى حتى سار فارس ألمانى اسمه Carroz ممن كانوا يعملون فى خدمة الملك خايمه فانتزعها منه سنة ٦٤٢/١٢٤٤ . وأما مرسية فقد ظل أميراً عليها داعياً للخليفة العباسى ، ثم دخل فى طاعة محمد بن يوسف ابن نصر بن الأحمر ، وظل على هذا وقتاً قصيراً ، ثم بدا لابن الأحمر فعزله عنها ، فتركها ومضى إلى تونس حيث عاش بقية عمره .

أما هذا الاتفاق الذى أشرنا إليه بين ملكى أرغون وقشتالة فقد تم فى بليدة تسمى المِرسَى Almirza من أحواز بلنسية فى ٢٥ مايو ١٢٤٤ (ذى القعدة ٦٤١) وهو يدل على أن الاستيلاء على ما بقى من قواعد المسلمين فى شرق الجزيرة لم يعد حربا بل تقسيما ، هذه لهذا وتلك لذاك ، وأدهى من ذلك أن هذا الاتفاق تم بينهما توثيقاً لمصاهرة عقداها ، فقد اتفقا على أن تتزوج الأميرة ڤيولانتِ ابنة خايمه الأمير ألفونسو بن فرناندو الثالث ملك قشتالة ، ونص الاتفاق على أن تكون شاطبة جزءاً من شوار العروس ، ولم تكن شاطبة قد سقطت بعد ! وبعد مفاوضات طويلة كادت تؤدى إلى الحرب استقر الملكان على اتفاقية المرسى هذه ، وقد نصت على أن يعطى خايمه لصهره بِيّانة Villena وساش Sax وكاوديتِ Caudete وبُغَرَّس Bugarras وأن يتنازل ملك قشتالة عن إنغيرة Enguera وموشنت Mogente ، وأن تكون بلنسية وتوابعها من نصيب أرغون ، ومرسية وتوابعها وما يليها جنوباً من نصيب قشتالة ، ووضع حد فاصل بين الناحيتين ، فتبعت مرسيةَ بلادُ المنزل Almansa وسَرَذُول Sarazul وحوض نهر كبرينول Cabrinol ، وتبعت بلنسية بلاد قسطلة Castalla وأبْيار Biar ورِيُّو Relleu وسشونة Saxona والأرش Alarch وفِنِسْترات Finestrat وطُرُّش Torres وبولوب Polop ومواله Muela ، وكلها مواضع صغيرة بين حوضى نهرى شقر Jucar وشقورة Segura .

وقد انتقد مؤرخو قطلونية ذلك الاتفاق وقالوا إنه أخرج مملكة أرغون من ميدان الحرب مع المسلمين وأقفل فى وجهها سبيل التوسع جنوباً على حسابهم ، ولكن خايمه الأول كانت أمامه مشاكل كثيرة فى بلاده المترامية ، ولم يكن يستطيع المضى فى حرب المسلمين إلى أكثر مما مضى ، ثم إن مرسية وما يليها جنوباً كان أمرها استقر بعض الشىء بعد قيام أبى جُميل زيان بالأمر فيها وبيعته للخليفة العباسى ودخوله فى طاعة محمد بن يوسف بن الأحمر صاحب غرناطة ، وكان مركز هذا قد استتب وأصبح قادرا على مواصلة

الحرب للدفاع عن كيانه ، وكان ابن الأحمر إلى جانب ذلك تابعاً للملوك قشتالة ، فلم تكن مواصلة الحرب معه بالأمر اليسير ، ومهما يكن من الأمر فقد ختم خايمه أعماله فى هذه الناحية بالاستيلاء على شاطبة فى أبريل ١٢٤٨ (محرم ٦٢٦) ليقدمها فى شوار بنته بعد ذلك .

* * *

ابن الأبار فى إفريقية

غادر ابن الأبار إذن بلاد الأندلس قاصداً بلاد الحفصيين ، ويذهب المغربى إلى أنه ذهب أولا إلى بجاية « ودرس بها وأقرأ وروى وسمع وصنف وألف ، ثم استدعاه المستنصر الحفصى ليكتب له » . ويبدو أن إقامته ببجاية كانت قصيرة ، لأنه يذكر فى ترجمة نذير بن وهب بن لُب أن هذا الأخير توفى فى العشر الأواسط من شعبان ٦٣٦ / مارس ١٢٨٩ « بعد ستة أشهر من الحادثة على بلنسية ، وأنا حينئذ بحضرة تونس فى توجهى إليها » أى أنه أقام ببجاية ثلاثة أشهر أو أربعة انتقل بعدها إلى تونس ليكون كاتب المستنصر الحفصى .

وتذهب المراجع إلى أنه تولى كتابة الإنشاء والعلامة ، و « العلامة » هى عبارة التوقيع التى تضاف إلى المكاتبات السلطانية وترفع إلى السلطان ليضع عليها خاتمه ، ويقال إن ابن الأبار كتب العلامة فترة من الزمن وكان يكتبها بخطه المغربى ، ولكن السلطان أبا زكريا يحيى رغب فى أن تكون بالخط المشرقى ، ولهذا أمر بأن يكتفى ابن الأبار بإنشاء المكاتبات ويدع العلامة لأحمد بن إبراهيم الغسانى ، وكان يحسن الكتابة بالخط المشرقى ، فغضب ابن الأبار لذلك واستمر يكتب العلامة على ما ينشئه من رسائل ، فعوتب فى ذلك وروجع ، فاستشاط غضبا ورمى القلم من يده وأنشد :

اطلب العز فى لظّى وذر الذل (م) ولو فى جنـــان الخلود

وحُمل الخبر إلى السلطان ، فصرفه عن العمل وأمره بلزوم بيته .

هكذا نجد الخبر فى كل مراجعنا على طريقتها فى تعليل الحوادث

تعليلات سطحية ظاهرة التكلف ، والحقيقة أن ما جرى لابن الأبار كان حلقة من حلقات الصراع بين الأندلسيين المهاجرين وشيوخ تونس من موحدين وغير موحدين ، بل حلقة من صراع هؤلاء المهاجرين الأندلسيين مع شيوخ كل قطر نزلوه وعلمائه . فقد كان الأندلسيون يحسون أنهم أعلم من غيرهم وأقدر ، ومن ثم فهم أولى بالتكريم وبالمناصب . ثم إنهم كانوا يتوقعون ممن نزلوا عليهم مراعاة وعطفاً عليهم مواساةً لهم فيما أصابهم فى بلادهم . أما أهل المغرب وتونس ومصر وبقية أهل المشرق فكانوا يرون أن أولئك المهاجرين أولى بأن يتواضعوا ويقنعوا بما وجدوا فى أوطانهم الجديدة ، ثم لماذا يطلبون أن يمتازوا على غيرهم ما داموا قد أصبحوا مواطنين فى البلاد التى نزلوها ؟ هذا كان مدار الخلاف الحقيقى ، نلمحه فى صور شتى فى تراجم الأندلسيين الذين هاجروا إلى بلاد إسلامية بعد ضياع بلادهم ، ويندر أن تقرأ لواحد من أولئك الأندلسيين شيئاً إلا لمسنا فيه المرارة التى نشأت عن خيبة الرجاء فى المهجر ، وأمثلة ذلك كثيرة عند على ابن سعيد وأبى الخطاب بن دحية وأثير الدين أبى حيان وأبى بكر الطرطوشى وابن خلدون والمقرى وغيرهم .

ولكن الخلاف بين الأندلسيين والبلديين كان أوسع مدى وأبعد أثراً فى تونس عاصمة الحفصيين ، فقد كان عدد من نزلها من الأندلسيين عظيماً ، وكان الكثيرون منهم سلائل أسر عريقة لها فى تاريخ الأندلس السياسى والعلمى أثر بعيد ، وقد ذكرنا أبا المطرف بن عميرة وأبا الحجاج البياسى ويضيف ابن خلدون أبا مروان أحمد الباجى من أعقاب أبى الوليد وأبا عمر ابن الجد من أعقاب أبى بكر بن الجد وغيرهم . وكان هؤلاء يتجمعون عصبة واحدة على العلماء من أهل البلد ومشايخ الموحدين يحاولون الاستئثار من دونهم بالوظائف الكبرى ومراتب الشرف ، وفى أيام أبى زكريا يحيى الحفصى تجمع هؤلاء حول عمه أبى القاسم بن أبى زيد وكان رجلا طامحا إلى السلطان لايخفى مطامعه ، وكان له مع أبى زكريا أخبار ووقائع ، ومن

ثم فقد كان الشك يحوم حول الأندلسيين ، وكانت الوقيعة فيهم تجد أذناً صاغية من هذه الناحية .

وقد حرص معظم من ذكرنا من مهاجرة الأندلسيين على أن يبتعدوا عن السياسة ما أمكن ، وانصرفوا إلى العلم أو غيره من المشاغل التى لا يثير الاجتهاد فيها مخاوف أولى السلطان ، ولكن ابن الأبار لم يستطع سلوك هذا السبيل ، فقد كان بطبعه رجلا طموحاً إلى السلطان والجاه وعرض الدنيا ، ولو رجلٌ غيره حوى فى صدره من العلم ما حوى لحمد الله على الأمان الذى صار إليه والكرامة التى لقيها وانصرف إلى التأليف والإقراء ، ولكن سوء طالعه غلب عليه ، فقد كان إلى طموحه وطمعه سريع الغضب حديد اللسان تصدر عنه المساءة وكأنه لايشعر ، ومن أمثلة ذلك أنه عند ما وصل إلى إفريقية نزل فى ميناء بنزرت ، وكتب إلى أبى عبد الله بن أبى الحسين وزير أبى زكريا الحفصى ينبئه بمجيئه ويمت إليه بصلة صداقة قديمة بدأت عند ما زار ابن الأبار تونس فى المرة الأولى ، وكان يحسب أن والد الوزير متوفى فنعته فى الخطاب بالمرحوم ، فنبهوه إلى أنه فى قيد الحياة ما يزال ، فضحك وقال : « إن أباً لا تُعرف حياتُه من موته لأبٌ خامل » ، ولم تعدم هذه الكلمة من يحملها إلى الوزير — طبعاً — فآلمته ، وتحدث إلى السلطان فى أن يستقر ابن الأبار فى بجاية ، وفعلا ذهب ابن الأبار إليها وأمضى فيها بضعة أشهر ثم استقدمه أبو زكريا إلى تونس وألحقه بخدمته .

ولم يقلع ابن الأبار عما جبل عليه من إيذاء الناس بلسانه ، ويبدو أنه كان ممن ينبزون الآخرين بالكلام القارص أو النقد المهين فى خفية وتستر حاسبين أن أمرهم لا يفتضح ، وأمرهم فى الحقيقة لا يخفى على أحد ، ومن هنا لقبه خصومه بالفأر ، ويغلب على الظن أن وجهه كان صغيراً نحيلا ومن هنا قال فيه أحد خصومه وهو أبو الحسن على بن شلبون المعافرى البلنسى :

لا تعجبوا لمضرةٍ نالت جمـ ـع الناس صادرةً من الأبار
أوَ ليس فأراً خِلقةً وخليقةً ؟ والفأرُ مجبول على الإضرار

فأجاب ابن الأبار سريعاً :

قل لابن شلبونٍ مقالَ تنزُّهٍ : غيرى بجاريك الهجاءَ ، فجارِ

إنا اقتسمنا خطتينا بيننا فحملتُ بَرَّةَ واحتملت ، فجارِ !

ثم إن ابن الأبار كان شديد الاعتداد بنفسه دائم الفخر بالأندلس وتفضيله على إفريقية ، قال ابن خلدون : « وكان فى ابن الأبار أنفة وبأو وضيق خلق » ، ومن هنا زهد فيه أبو زكريا الحفصى وأراد أن يبعده عن ديوانه ، وأيده فى ذلك أبو الحسين أحمد بن إبراهيم الغسانى ، فتعلل السلطان بحكاية خط العلامة هذه حتى لا يراه ، إذ كان صاحب العلامة يعرض الكتب عليه ، ولكن ابن الأبار لم يفهم ، وأصر واستمسك ، ثم ذهب به الغضب إلى التمثل بالبيت الذى يفضل فيه العز فى اللظى على الذل فى جنان الخلود ، ولم يكن هذا منه إلا تشدقاً بألفاظ ، فلوكان فى الحقيقة ممن يفضلون العز فى اللظى لأقام فى الأندلس ، فهناك فعلا كان اللظى فى الحروب التى لا تسكن وهناك أيضا كان العز فى ظلال السيوف .

وليت ابن الأبار استمسك بهذه العزة بعد أن أبعد وألزم دارَه ! بل سعى سعياً حثيثاً فى العودة إلى الذل فى جنان السلطان ، بل أنفق الوقت فى رسالة استعطاف طالت حتى صارت كتابا هو « إعتاب الكتّاب » تذلل فى فاتحته فأسرف فى التذلل ، ثم أخذ يقص حكايات كتّاب سبق إليهم غضب السلاطين ثم حلت بهم نعمة الرضا فأعتبوهم . وقد استشفع ابن الأبار بولى العهد أبى يحيى زكريا ، وكان فى أيام أبيه شابا مستضعفاً دائم الخوف من إخوته محمد وإبراهيم وعمر وأبى بكر (وكلهم ولىَ بعده) ومن أبناء عمه محمد بن عبد الواحد المعروف باللحيانى لعظم لحيته ، ولهذا كان حريصا على أن يكسب لنفسه أنصاراً يشدون أزره ، فسره أن يستشفع به ابن الأبار فكلم أباه فى أمره فأعاده إلى الرضا .

وشاءت الأقدار أن يموت أبو يحيى زكريا هذا قبل موت أبيه بسنة واحدة (٦٤٦ / ١٢٤٨ – ٤٩) وأن يصير الأمر بعد ذلك إلى أبى عبد الله

محمد ثانى أولاد أبى زكريا ، وهو الذى عرف بالمستنصر أو المنتصر ، وظل ابن الأبار فى عمله ولكنه استمر على دأبه فى تنقص الناس وخاصة أبى الحسين أحمد بن إبراهيم الغسانى ، وكان قد أصبح وزير المستنصر ، فاجتهد هذا حتى أصدر السلطان أمره بإبعاد ابن الأبار إلى بجاية ؛ فذهب إليها وانصرف إلى التأليف فترة من الزمن أنجز فيها كتاب « التكملة » الذى كان قد بدأه فى الأندلس ؛ وهذه الإقامة فى بجاية هى التى أتاحت للغبرينى فرصة الترجمة لابن الأبار ضمن من حل من العلماء ببجاية ، وهى أحسن وأوفى ترجمة له بين أيدينا .

وفى هذه الفترة أيضا نعتقد أنه أتم كتاب « الحلة السيراء » ، ومن المقطوع به أنه بدأ يكتبه فى تونس عقب استقراره فيها ، فهو فى فاتحته يتحدث عن شعر للسلطان أبى زكريا يحيى وولى عهده أبى يحيى ، وكانا يقرضان الأبيات منه بين الحين والحين ، وقد صنفه ابن الأبار تمجيداً لشاعرية السلطان وابنه وتدليلا على أن قول الشعر من خصال كبار الخلفاء والسلاطين والأمراء ، فهذا الكتاب ، مثل « إعتاب الكتاب » ، كتاب مناسبة ، ولكنها كانت مناسبة سعيدة ، لأنها أتاحت الفرصة لهذا الحافظ الواعى ليسجل شيئاً من محفوظه الغزير . وفى الكتاب إشارة إلى أنه كان ما زال مشتغلا بكتابته سنة ١٢٤٨/٦٤٦ — ٤٩ وهى السنة التى توفى فيها ولى العهد أبو يحيى ، وربما يكون قد أتمه قبل وفاة أبى زكريا ، ولكن العجلة التى تبدو فى الباب الأخير من الكتاب تدل على أنه أتمه بعد هذه السنة بمدة قصيرة ، وفى الغالب أيام إقامته الثانية فى بجاية .

ولا ندرى كيف وفق ابن الأبار إلى رضى المستنصر ، ويبدو أن ذلك كان نتيجة لرسائل مديح كتبها من بجاية يشيد بالمستنصر وأعماله ، وقد أورد المقرى فى « أزهار الرياض » رسالة لابن الأبار بمناسبة تمام حفر القنـــاة المؤدية إلى الحدائق التى أنشأها أبو زكريا الحفصى خارج تونس ، والرسالة

تدل على أن ابن الأبار كتبها من بعيد وأرسلها إلى السلطان . ولم تكن حال ابن الأبار فى بجاية سيئة ، فقد لقيه هناك على بن سعيد المغربى ؛ وقال بعد أن أشار إلى سينيته وتوفيقه فيها وإعجاب الناس بها : « إلا أن أخلاقه لم تعنه على الوفاء بأسباب الخدمة ، فقلصت عنه تلك النعمة ، وأخّر عن تلك العناية ، وارتحل إلى بجاية ، وهو الآن بها عاطل من الرتب ، خال من حلى الأدب ، مشتغل بالتصنيف فى فنونه ، متنفّل منه بواجبه ومسنونه ، ولى معه مجالسات آنق من الشباب ، وأبهج من الروض عند نزول السحاب . . . » (القدح المعلى ، برواية المقرى ، ٢٨٢/٤)

وعاد ابن الأبار من بجاية إلى تونس ، ومن حسن الحظ أنه أنهى هناك كتابيه الرئيسيين « التكملة » و « الحلة » ، والغالب أنه ترك نسخاً من هذا وذاك هناك ، فنجا الكتابان من الدمار . وكان حريا بابن الأبار بعد ذلك أن يلين خلقه ويضبط لسانه ويخفف من دعواه ، ولكنه مضى على سابق عهده من الكبرياء وحدة اللسان ، وربما كانت هذه دعوى من خصومه الكثيرين وخاصة أحمد بن إبراهيم الغسانى وزير المستنصر الأثير عنده ، ولم يكن الغسانى ليطمئن له جنب وابن الأبار قريب من السلطان يستطيع الوصول إليه إذا أراد ، وكان المستنصر رجلا كثير المخاوف يتوقع الشر من كل ناحية إذ أن أعداءه والمدبرين عليه كانوا كثيرين ، وكان ابن الأبار قبل ذلك من أتباع أخيه المتوفى ، فلم يكن هناك أيسر على الغسانى من اتهام ابن الأبار بالتدبير على الدولة ، فيحل بذلك دمه للسلطان ويفرغ منه بأهون سبيل .

نقول هذا لأن عقوبة القتل التى أنزلها المستنصر بابن الأبار لا يمكن أن تعلل بما يقال من أنه سمع السلطان مرة يسأل عن مولد ولده أبى زكريا يحيى الذى تولى السلطة بعده وتلقب بالواثق ، فجاء ابن الأبار فى اليوم التالى برقعة فيها تاريخ الولادة وطالعها ، ويضيف بعض مؤرخينا أن هذا

الطالع كان نحساً ، فاستشاط السلطان غضباً من فضوله وتطفله ، وكان ذلك سبب حتفه ؛ نقول إن ذلك كله لا يفسر لنا غضب المستنصر على ابن الأبار غضبا يؤدى به إلى قتله ثم إحراق شلوه وكتبه ، فهذا التصرف لا يصدر عن غضب بل عن خوف ، وأصحاب السلطان فى تلك العصور لم يكونوا يقتلون إلا لخوف على أنفسهم وعروشهم ، أما ما عدا ذلك فيكفى فيه الإبعاد أو السجن أو المصادرة وما إلى ذلك .

ولهذا فلا بد أن التهمة التى دبرت لابن الأبار كانت تهديد السلطان أو الاشتراك مع نفر فى ذلك ، لأننا حتى لو فرضنا أن ابن الأبار قال بيت الهجاء الذى تنسبه إليه المراجع ، فإن ذلك لا يبرر الحقد الذى ظهر من المستنصر . ولا بد كذلك أن السعاية به بدأت منذ عودته من بجاية إلى تونس ، فقد كان السلطان لا يطيق النظر إليه ، فكان يستفتيه فيما يريد من بعيد ، فإذا دخل عليه لم يكلمه أو يلتفت إليه ، وكان ابن الأبار « يشكو من ذلك ويتألم وينعى على الزمان سوء حظه :

علتْ سِنِي وقدرى فى انخفاضٍ وحُكم الرب فى المربوب راض
إلى كم أسخط الأقدار حتى كأنى لم أكن يوماً براض »

ثم تجىء النهاية إثر حادثة مولد ولى العهد وطالعه التى ذكرناها ، ويذهب ابن خلدون بعد ذكرها إلى أن وشايات الحساد أوغرت صدر السلطان عليه وأوهمته أنه يتوقع المكروه للدولة وتهمه بالنظر فى النجوم ، فقُبض عليه وقام الكاتب أحمد بن إبراهيم الغسانى بالبحث فى داره وكتبه ودفاتره ، فعثر فيها على بيت شعر يقول :

طغى بتونس خلَفٌ سموه ظلماً خليفة

وعثر عنده أيضا على كتاب فى التاريخ فيه ما يسىء إلى السلطان ، فأمر بضربه بالسياط وقتله وإحراق مؤلفاته ، فقتل ضرباً بالرماح صبيحة

obeikandi.com

الثلاثاء ٢١ من المحرم سنة ٦٥٨ وأحرق شلوه ، وأخذت مجلدات كتبه وأوراق سماعه ودواوينه فأحرقت معه ، وكانت نحواً من خمسة وأربعين تأليفاً (تاريخ الدولتين للزركشي ، ص ٢٧)

والحق أن الإنسان ليدهش من قسوة ذلك العقاب الذى أنزل بابن الأبار ، فمثل هذه العقوبة ما كانت تنزل إلا بأعداء السلاطين ذوى الخطر ، أو الذين ناوأوهم وحاربوهم وكادوا يقضون عليهم ، ولا نتصور مهما ذهبنا مع الخيال أن ابن الأبار بلغ هذا المبلغ فى كراهة المستنصر والتدبير عليه ، ولكن الذى لا شك فيه أن الوشاية فى حقه صورته فى تلك الصورة ، فكانت النتيجة هلاكه على أبشع هيئة نتصورها ، وهذه واحدة من جرائم أولئك السلاطين ووزرائهم ممن حملوا فى رقابهم من أوزار المساكين ودماء الضحايا ما يصمهم إلى الأبد فى حساب الأخلاق وحساب التاريخ .

عاش ابن الأبار ثلاثا وستين سنة هجرية ، اثنتان وأربعون منها فى الأندلس والباقى فى المغرب ، ولم يسعد فى هذا ولا ذلك ، فأما فى الأندلس فقد عاش مروع السرب يحوم فوقه شبح الموت فى كل حين ، وكتب لرجال لولا سوء الزمان لما كان لهم إلى الإمارة سبيل ، ومدح غيرهم ممن لايستحقون مجرد الذكر فضلا عن المديح ، ثم فقد وطنه وخرج بما حملت يداه إلى المغرب حيث تلقفه الأعداء وأعانهم على نفسه بسوء خلقه وتطلعه إلى الوظائف والجاه ، فلم يسعد فى وطنه الجديد ولا هدأ باله ، وانتهى أمره إلى هذه النهاية الفاجعة ، ولا عجب أن يلقبه بعض المؤرخين بالشهيد ، وهذه الشهادة لا تحق له لموته مظلوماً فحسب ، بل لأن حياته كلها كانت استشهاداً طويلا على يد الأيام .

* * *

مؤلفات ابن الأبار

ألف ابن الأبار كتبا كثيرة ، أحصى معظمها بروكلمان والمرحوم عبد العزيز عبد المجيد فى كتابه عن ابن الأبار والأستاذ إبراهيم الإبيارى فى

مقدمته للمقتضب من تحفة القادم والدكتور صالح الأشتر فى مقدمة تحقيقه لإعتاب الكتّاب ، وفى ثبت الكتب الوارد فى آخر تحقيقنا هذا ذكر كتب أخرى لابن الأبار ، وله رسائل وأشعار كثيرة أورد الكثير منها من أرخوا له وخاصة المقرى فى « نفح الطيب » و « أزهار الرياض » والغبرينى فى « عنوان الدراية » .

والناظر فى أسماء كتبه التى ضاعت — وعددها ٣٩ — وكتبه التى وصلت إلينا — وعددها ستة — يلاحظ أنها فى ثلاثة فنون : الحديث والأدب والتاريخ . فأما كتبه فى الحديث فلم يصل إلينا منها شىء يعيننا على تقديرها قدرها الصحيح بين كتب هذا الفن ، وربما كان أهمها هو « المأخذ الصالح فى حديث معاوية بن صالح » ، فقد كان معاوية هذا من أوائل فقهاء الأندلس وقضاتها ، وقد ذكره ابن سعد فى طبقاته وأثنى عليه ومن ثم فإن أحاديثه تعتبر من العوالى ، وطالما تأسف من جاء بعده من الأندلسيين على ضياع أحاديثه وعلمه .

وأما كتبه فى الأدب فلم يبق منها إلا مقتضب تحفة القادم الذى عمله البلفيقى ، وهو مختصر سيئ الصنع ، استغنى البلفيقى فيه عن معظم النثر ولم يبق إلا هيكلا جافاً يتكون من أسماء وبضعة أشعار ، وهذه لا تعين على تقدير ابن الأبار بين أصحاب كتب الأدب .

أما ميدان ابن الأبار الحقيقى فكان التاريخ والتراجم بصورة خاصة ، وكتبه الأربعة الباقية فى هذا الفن تشهد بملكة عظيمة فى هذا الميدان ، ولا تتجلى هذه الملكة فى كتاب كما تتجلى فى « الحلة السيراء » وهو غرة كتبه دون جدال ، ولابن الأبار فيه لمحات وإشارات واستدراكات تدل على أنه كان مؤرخاً حقاً عارفاً بتاريخ الإسلام حافظاً له قارئاً لكتبه ، وهو يستدرك فيه على نفر من أئمة المؤرخين أخطاء لا يتنبه لها إلا عالم متمكن ذو ملكة واعية .

وقبل أن نفرغ لكتاب الحلة نقف وقفة قصيرة عند كتابى « التكملة لكتاب الصلة » و « المعجم فى أصحاب أبى على الصدفى » .

واضح أن « المعجم » كتب قبل « التكملة » ، كتبه ابن الأبار بعد أن نضج تكوينه العلمى ، ونظن أن ترتيبه الزمنى بين مؤلفاته يجىء بعد « معدن اللجين فى مراثى الحسين » ، فقد أشار إلى هذا الكتاب فى كتبه التالية ، وموضوع « معدن اللجين » — كما يدل عليه عنوانه — من تلك الموضوعات التى تستهوى أفئدة الشباب بسبب غلبة العاطفة عليهم ، وقد كان ابن الأبار طالبياً ، ولكنه لم يكن شيعياً ، فإن الطالبى هو الذى يميل بعواطفه إلى أهل البيت ويأسى لما أصاب الكثيرين منهم أسى عاطفياً ولا يتعدى ذلك ، ومعظم كبار مؤرخينا على هذا الاعتبار طالبيون ، وأما الشيعى فهو الذى يتبع مذهب الشيعة ويميل عن السنة ، وقد ذهب المقرى إلى أن كتاب « در السِّمط فى خبر السِّبط » تشم منه رائحة التشيع ، وقد بالغ فى هذا الوصف ولا شك ، فإن الكتاب بين أيدينا وليس فيه إلا هذه العاطفية البريئة التى نجدها عند المقريزى مثلا .

وكتاب « المعجم فى أصحاب أبى على الصدفى » كتاب فريد فى نوعه من بين ما وصل إلينا من التراث الأندلسى ، لا لأنه لم يؤلَّف مثله ، بل لأنه أكمل كتاب أندلسى من هذا النوع وصل إلى أيدينا . فقد ألف القاضى عياض كتاباً فى شيوخ أستاذه أبى على الصدفى هذا ، فأراد ابن الأبار أن يكمل العمل بتأليف كتاب فى أصحاب أبى على ، أى تلاميذه ومعاصريه ومن تبادل معهم العلم . ولو وجدنا كتاب عياض لاكتملت لنا مدرسة من مدارس العلم كانت فخراً للأندلس يتوسطها شيخها أبو على بن سكرة الصدفى ومن حوله شيوخه ثم معاصروه وتلاميذه ، والصدفى جدير بهذا التقدير كله ، فإنه لم يكن شيخاً واسع العلم كريم الخلق فحسب ، بل كان مجاهداً باسلاً لقى الشهادة فى معركة كُتندة على ما ذكرناه .

وابن الأبار فى « المعجم » دقيق الدقة كلها : دقيق فى رسم الأسماء وتواريخ الميلاد وتعداد الشيوخ ، ودقيق أيضاً فى المنهج الذى اتبعه ، فهو يرتب أسماء المترجَم لهم على حروف المعجم (مع بعض خلاف قليل مقصود كإيراد اسم أحمد قبل إبراهيم) ، وهو بعد أن يفرغ من حرف يحصى عدد من ذكرهم فيه ، وإذا أهمل حرفاً نبه إلى أنه لم يجد فيه « معروفاً من هؤلاء الرواة ولا مكثرا » ، أو « ليس فى هؤلاء الرواة من أول اسمه دال أو ذال ، وعدة المذكورين فى الحروف الثلاثة : الجيم والحاء والخاء ثلاثة عشر ، منهم فى التكملة تسعة رجال » . وعدد التراجم التى فى هذا المعجم ٣١٥ .

ويفهم من العبارة السابقة أن كتاب « التكملة » كتب قبل « المعجم » . والراجح — على حسب ما استبان لى — أن كتاب « التكملة » كتب على فترات ، ففيه مواد يبدو بوضوح أنها كتبت قبل سنة ٦٣٠/١٢٣٢ — ١٢٣٣ ، وأخرى كتبت بعد هذا التاريخ وقبل هجرة ابن الأبار إلى المغرب ، وثالثة كتبت وهو فى بجاية . وهذا معقول بالنسبة لكتاب كبير مثل « التكملة » . صحيح أنه يفهم من فاتحة الكتاب — كما نشرها محمد بن شنب فى « المجلة الإفريقية » (سنة ١٩١٨) ص ٣١٧ — أن الفراغ من كتاب « التكملة » كان فى أول المحرم سنة ٦٣١/١٢٣٣ — ٣٤ ولكن فى الكتاب مواد كتبت وابن الأبار فى تونس أو بجاية ، مما يدل على أن ابن الأبار فرغ من صورة أولى من الكتاب فى أول المحرم ٦٣١ ثم عاد إلى الكتاب فأكمله ووضعه فى الصورة التى وصلت إلينا وهو فى بجاية للمرة الثانية .

وكتاب « التكملة » إستتمام لما بدأ به أبو الوليد عبد الله بن يوسف الأزدى المعروف بابن الفرضى (٣٥١ — ٤٠٣/٩٦٢ — ١٠١٢) من الترجمة لعلماء الأندلس ، وواصل العمل أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود ابن بشكوال الأنصارى (٤٩٤ — ٥٧٨/ ١١٠٠ — ١١٨٢) ثم استتم ما فاته

فى كتاب لم يصل إلينا هو كتاب « ذيل الصلة » يذكره ابن الأبار فى « المعجم » ، ثم جاء ابن الأبار فتصدى لاستكمال ما فات سابقيه ومواصلة التراجم إلى أيامه ، وواصل العمل من بعده محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصارى المراكشى المعروف بابن عبد الملك (٦٣٤ — ٧٠٣ / ١٢٣٧ — ١٣٠٣) ثم واصل هذا العمل الجليل أبو جعفر أحمد بن إبراهيم المعروف بابن الزبير (٦٢٧ — ٧٠٨ / ١٢٢٩ — ١٣٠٨) وختمه ابن الخطيب بكتابه « عائد الصلة » .

وتكمل هذه السلسلة مؤلفات أخرى فى نفس موضوع تراجم علماء الأندلس مثل « جذوة المقتبس » للحميدى و « بغية الملتمس » للضبى و « معجم شيوخ ابن العربى » لابن الأبار (لم يوجد إلى الآن) وغيرها .

وهذه الكتب كلها — فيما عدا الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى — تتبع منهجاً واحداً فى الترجمة ، فتذكر الرجل باسمه الكامل وكنيته ونسبته وبلده الذى ولد فيه أو الذى منه أصله والبلد الذى سكنه إن كان قد نزل بلداً آخر ثم شيوخه وما قرأ عليهم ، ثم تلاميذه ومن أخذ عنه ، وتختم الترجمة بتاريخ الوفاة ومكانها وتاريخ الميلاد ومكانه إذا تيسر .

وهذه فى الحقيقة ليست تراجم بالمعنى المعروف ، إنما هى سجلات بالأسماء وتواريخ الميلاد والوفاة والشيوخ ، فلا تعطى فكرة واضحة عن المترجم له إلا فيما ندر ، فليس فيها — إلا فى القليل جدا — إشارات إلى حياة الرجل وما وقع له أو صفاته وخصائصه كرجل له صفات وخصائص ، بل ليس فيها — إلا فى النادر أيضاً — تلك الطرائف والحكايات الصغيرة التى نجد نماذج منها فى « تاريخ القضاة » للخشنى أو « رياض النفوس » للمالكى أو « الإحاطة » لابن الخطيب أو سلسلة كتب الوفيات المشرقية التى بدأت بابن خلكان ، ومن ثم فإن قيمتها للتاريخ السياسى والاجتماعى للأندلس محدودة ، بل فائدتها فى التعريف بالرجال أنفسهم قليلة .

ولكنها على أى حال أكثر فائدة من المواد التى يتضمنها الكثير من كتب على بن سعيد وكتاب « الخريدة » للعماد الأصفهانى أوالكنية الكامنة لابن الخطيب ، فهذه مجموعات مختارات وليست تراجم أو مواد ذات قيمة تاريخية .

وفى هذه الحدود تتساوى كتب ابن الفرضى وابن بشكوال وابن الأبار وابن الزبير فى الدقة والإتقان ، وربما شف ابن بشكوال على صاحبيه فى تراجمه بسبب ملكته التاريخية الواضحة . وابن الأبار على هذا الاعتبار واحد من أعلام مؤرخى العلم فى الأندلس ومرجع من المراجع التى لا يستغنى عنها مؤرخ له خلال القرنين السادس والسابع الهجريين بصفة خاصة .

• • •

كتاب الحلة السيراء :

وننتهى إلى كتاب « الحلة السيراء » ، وهو دون شك أحسن كتب ابن الأبار وأعظمها فائدة ، بل هو من عيون ما ألف أهل الأندلس قاطبة ومن المراجع التى لا يستغنى عنها من يؤرخ له أو يكتب فى أى ناحية من نواحى الحياة فيه .

وقد ذهب بعض المحدثين إلى أن عنوان الكتاب الكامل : « الحلة السيراء فى شعر الأمراء » ولم نجد ما يؤيد هذا فى المخطوط ولا عند الموثوق فيهم ممن كتبوا عنه ، ولهذا جعلنا عنوان الكتاب « الحلة السيراء » فحسب ، ولو أن إكماله بعبارة « فى شعر الأمراء » معقول .

وقد قلنا فى أول هذه المقدمة إن صاحب الفضل فى اكتشاف القيمة التاريخية والأدبية لهذا الكتاب كان المستشرق دوزى ، وقد أثبتت الدراسات التالية حصافة دوزى عندما أشاد بقيمة الكتاب وخصائص صاحبه ، والكتاب الآن بين أيدى القراء يستطيع من يريد منهم أن يستبين بنفسه ما له من قيمة وما يوحى به من ثقة .

ولفظ « السِّيَرَاء » الذى استعمله ابن الأبار فى العنوان لفظ نادر الاستعمال ولكنه جميل أحسن ابن الأبار فى اختياره ، وإليك ما ورد فى « لسان العرب » فى معنى هذا اللفظ :

« . . . وثوب مُسَيَّرٌ وشْيُه مثل السُّيور ، وفى « التهذيب » : إذا كان مخططاً . وسَيَّر الثوبَ والسهمَ جعل فيه خطوطاً ، وعُقابٌ مسَيَّرة مخططة . والسِّيْراء والسِّيَرَاء ضرب من البرود ، وقيل هو ثوب مُسَيَّر فيه خطوط تعمل من القز كالسيور ، وقيل برود يخالطها حرير ، قال الشَّمَّاخ :

فقال إزارٌ شَرْعَبِيٌّ وأربعٌ من السِّيَرَاء أو اواق نواجزُ

وقيل هى ثياب من ثياب اليمن والسِّيَراء الذهب ، وقيل الذهبُ الصافى ، الجوهرى ، والسِّيَراء بكسر السين وفتح الياء والمد بُرْدٌ فيه خطوط صُفر ، قال النابغة :

صفراءُ كالسِّيَرَاء أُكمل خَلقُها كالغصنِ فى غُلَوائه المتأوِّد

وفى الحديث : أهدى إليه أُكَيْدِرُ دومة حلة سِيَراء . قال ابن الأثير : هو نوع من البرود يخالطه حرير كالسيور ، وهو فِعَلاَء من السَّير القِدّ . قال : هكذا روى على هذه الصفة . قال ، وقال بعض المتأخرين : إنما هو على الإضافة ، واحتج بأن سيبويه قال : لم تأت فِعَلاءُ صفةً لكن اسماً ، وشرَح السِّيَرَاء بالحرير الصافى ، ومعناه حلة حرير ، وفى الحديث : أعطى علياً بُرْداً سِيَرَاء وقال : اجعله خُمُراً ، وفى حديث عمر : رأى حُلةً سِيَرَاء تباع ، وحديثه الآخر أن أحد عماله وفد عليه وعليه حُلة مُسَيَّرة أى فيها خطوط من إبريسم كالسيور » (مادة سير ، ٦ / ٥٧) .

وإذن فالمراد بالعنوان : الحلة ذات خطوط من حرير ، وقد تكون هذه الخطوط صفراء فتشبه الذهب ، وإذا أخذنا برأى سيبويه كان المعنى ثوب حرير صاف . وهو بطبيعة الحال كناية عن مادة الكتاب وما فيه من

الشعر ، وجدير بالملاحظة أن شعر الكتاب ليس كله لأمراء ، بل فيه الكثير من شعر الوزراء والكتاب وأصحاب الجاه والعلماء .

وهذا الشعر كله جيد ، مما يدل على ملكة ابن الأبار كناقد للشعر عارف بالجيد منه وغير الجيد . ولكن أهم من الشعر فى الكتاب نثره ، فهو تراجم غاية فى الفائدة لعدد كبير من الشخصيات التاريخية فى المغرب والأندلس من القرن الهجرى الأول إلى منتصف القرن السابع مع مادة تاريخية لابأس بها عن أعلام مشارقة من أهل القرن الأول كان لهم نصيب فى فتوح المغرب والأندلس .

وفى كل هذه المواد يبدو لنا ابن الأبار مؤرخاً فحلاً واسع الاطلاع نافذ النظر صادق الحكم ، وإذا استثنينا بعض المواد الأولى التى ينسب فيها ابن الأبار شعراً إلى عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الملك بن مروان وبعض أجزاء الباب الأخير الخاص بمن لم يؤثر عنهم شعر ، تبيناً أن مادة التراجم كلها متعادلة من حيث القيمة والغزارة والأصالة ، غنية بكل ما ينفع المؤرخ ، ولا أذكر أننى قرأت لغير ابن الأبار فى الأندلس شيئاً يدل على سعة العلم على هذه الصورة ، فهو متمكن غزير المادة سواء أكتب عن خلفاء بنى العباس أم خلفاء الفاطميين أم أمراء الأندلس وخلفائها أم أمراء الطوائف ومن عاصرهم . وهو ليس غزير المادة فحسب ، بل ناقد يقظ لا يمر بخطأ فى تاريخ أو اسم إلا استدرك عليه ، وتبدو منه بدوات هنا وهناك تدل على أنه كان بالفعل من أعلم الناس بتاريخ المسلمين السياسى والعلمى والأدبى .

ومن حسن الحظ أن ابن الأبار تخلى عن السجع بعد فراغه من فاتحة الكتاب ، فجاء أسلوبه قويماً رصيناً بليغاً يرتفع إلى أحسن مستويات الأساليب العربية الصافية ، وأسلوبه هنا يشبه أسلوبه فى « إعتاب الكتاب » . ومقارنة بين أسلوب الحلة وإعتاب الكتاب ونصوص الرسائل المسجوعة التى كتبها ابن الأبار وأورد المقرى شيئاً منها تعطينا دليلا على جناية السجع

على الأدب العربى ، فهذا ابن الأبار إذا كتب على سجيته دون تكلف أفصح وأبان وأفاد وأمتع ، فإذا تكلف وسجع أسفّ وهبط وضاعت معانيه فى جهد البحث عن السجعات .

وليس هذا موضع تحليل هذا الكتاب ، فهذه دراسة طويلة جديرة بأن يفرد لها بحث خاص ، ومثل هذا الكتاب تتبين مزاياه عند الحاجة إليه والبحث فيه .

* * *

المخطوط :

ولم تُبق الأيام من « الحلة السيراء » إلا نسخة وحيدة هى هذه التى اعتمدنا عليها فى هذا العمل ، وقد وقع فى ظن بعض الباحثين أن هناك نسختين أخريين ، واحدة فى مدريد والثانية فى باريس .

وهذه النسخة الوحيدة الباقية هى المحفوظة فى مكتبة الإسكريال برقم ١٦٥٤ ، وهى نسخة جميلة مكتوبة بخط مغربى على ورق حجمه ٢٧ × ٢٠ سنتيمترا ، فى الصفحة ١٩ سطراً ، وعدد أوراقها ١٩٧ . وفى نفس المجلد ٣ ورقات أضيفت إليه خطأ من تاريخ يظن أنه لأحمد بن أبى الفياض المؤرخ الأندلسى ، والخلاف فى نسبتها شديد بين الباحثين ، انظر :

P. MELCHOR ANTUNA, *Un Fragmento Arábigo – Historico* (Biblioteca del Escurial); en CIUDAD DE DIOS. San Lorenzo del Escurial, tomo CXXXVII, 1921, p. 103 — 114.

وانظر أيضا فهرس المخطوطات العربية بمكتبة الإسكريال الذى وضعه هارتويج ديرنبور وراجعه وأكمله ليڤى پروڤنسال (باريس ١٩٢٨) جـ ٣ ص ١٨٨ — ١٨٩ .

وتنقص المخطوط من أوله ورقتان أو ثلاث على الأكثر فيها خطبة الكتاب وشىء من فاتحته ، وابن الأبار يأتى فيها بنماذج من شعر أمراء من بنى حفص ، والغالب أن بعضها للأمير أبى يحيى زكريا الذى كان ولياً للعهد ثم

توفى قبل وفاة أبيه أبى زكريا يحيى بن أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص عمر بن يحيى الهنتاتى فى سنة ٦٤٧ / ١٢٤٩ — ١٢٥٠ وانتقال الأمر إلى ابنه أبى عبد الله محمد الذى لقب بالمنتصر أو المستنصر .

أما النسخة التى ظن بعضهم أنها فى المكتبة الأهلية فى باريس فنسخة حديثة كتبها المستشرق الإسبانى خوسيه أنطونيو كونْدِ وعن هذه نقل المستشرق رينو نسخة صارت إلى ملك الجمعية الأسيوية الفرنسية ، ثم انتقلت إلى المكتبة الأهلية فى باريس (انظر جامع نصوص بنى عباد لدوزى ، ج ٢ ص ٤٦ — ٤٧) وقد استعان بها دوزى فى نشر ما نشر من الحلة ، ولكن بعضهم حسبها مخطوطة قديمة من الحلة وتحدث عنها بهذا الوصف .

وأما نسخة مدريد التى ذكرها بعضهم على أنها أصل من أصول الحلة فنسختان لا واحدة ، كتب الأولى منهما فى سنة ١٧٩٥ مستشرق إسبانى يسمى خوسيه أنطونيو بِيثَرْ José Antonio Pellicer وكتب الثانية مستشرق إسبانى آخر يسمى پابلو أودار Pablo Hodar بتوجيه من ميخائيل الغزيرى ، وقد أصبح هذا الرجل بعد ذلك أستاذاً للغة العربية فى جامعة قلمرية Coimbra فى البرتغال ، وتوفى بها سنة ١٧٧٩ (انظر فهرس مخطوطات المكتبة الأهلية بمدريد الذى صنفه جيِّنْ رُوبْلِسْ Guillén Robles ، مدريد ١٨٩٨ رقمى ١٢ و ١٣ ص ٨ و ٩) .

ولا وجود كذلك لأى نسخة أخرى من الحلة فى أى مكتبة عامة أو خاصة أخرى بحسب ما وصل إليه علمى .

وهذه المخطوطة الوحيدة جميلة واضحة الخط ، ولولا هذا الخرم الصغير فى أولها وبعض ثغرات قليلة الأهمية فى سياق النص لكانت من أكمل ما وصل إلينا من المخطوطات . وقد وقع الناسخ أثناء النقل فى خطأ جر إليه السهو ، فانتقل فى أثناء ترجمة أبى عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز بن أمية بن الحكم الربضى إلى ترجمة أبى عبيد بن عبد العزيز

البكرى ، وكأنه كان ينسخ ترجمة الأول ثم مضى لبعض شأنه وعاد ففتح المخطوط فوقع على ترجمة أبى عبيد بن عبدالعزيز البكرى فلم ينتبه للأمر ومضى ينقل ، وبعد أن فرغ منه تنبه إلى أنه أسقط تراجم معظم أهل القرن الخامس ، فعاد واستتمها ! ومن حسن الحظ أنه لم يسقط شيئاً من الأصل . وقد تنبه إلى ذلك دوزى وبينه فى الكلمة التى صدر بها ما نشر من الحلة ، وراجعتُ الأمر مرة أخرى عند التحقيق ، ونبهت على ذلك فى موضعه .

وقد أفدتُ أكبر الفائدة من عمل دوزى وماركوس مولر فى هذا الكتاب ، وقد جرى الناس على أن يذكروا الأول دون الثانى عند الكلام على الحلة ، مع أن مولر فى الحقيقة خدم ما نشر من النص خدمة طيبة وقد انتفعت من قراءته فى كثير من المواضع ، ومن الحق أن أحيي هنا ذلك الجهد العظيم الذى بذله هذان المستشرقان الجليلان ، لا فى تحقيق ما نشرا من الحلة فحسب ، بل لخدماتهما للدراسات العربية بصفة عامة ، ويكفى أن أحدهما — وهو ماركوس مولر — كان يستحب أن يسمى نفسه امرأ القيس بن الطحان ، لأن امرأ القيس فى رأى البعض تعريب لماركوس أو مرقص ومولر معناه الطحان .

* * *

وبعد فهذا نص « الحلة السيراء » كاملا بين يدى القارئ مخدوماً على قدر ما سمحت به الطاقة وأعان الجهد ، ولقد طالما رجا الباحثون أن يجدوه ميسّراً بين أيديهم ، فعسى أن يكون ما أنفقت من جهد محققاً للرجاء .

وقد أعانني فى ضبط الشعر صديقى وأخى الدكتور محمود على مكى وكيل معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، وأنا مدين له بهذا الفضل ، ووقف على طبع الكتاب فى القاهرة صديقى مصطفى عبد المجيد صالح أكرمه الله بما صدق ونصح ، وتعاونّا نحن الثلاثة على تصحيح تجارب الطبع ، ونحسب أننا نقدم هنا نصاً يخلو من خطأ مطبعى يستحق الذكر .

والله ينفعنا بجهدنا ويزيدنا من فضله وتوفيقه . وخير ما نختم به هذا الكلام دعاء صادق بالرحمة والغفران لأبى عبد الله محمد بن أبى بكر ابن الأبار .

د . حسين مؤنس

أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب بجامعة القاهرة
ومدير معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سابقًا
وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة

القاهرة فى شوال ١٤٠٥
يوليو ١٩٨٥

obeikandl.com

obeikandl.com

كتاب

الحلة السيراء

obeikandi.com

obeikandl.com

[بسم الله الرحمن الرحيم

... ...

... ...](*)

/بَنَى لىَ المجدَ آباءٌ كِرامٌ ... وَرِثْنا مجدَهمْ باعاً فَباعَا [١-١]

وَهذّبنى الإباءُ ففات طِرفى(١) ... وكلٌّ بَعْدُ يَجرى ما استطاعَا

وقبلَهما مما يصل حبلَهما و يصف فضلَهما :

وما لِلناس مِنا غيرُ رَعْيٍ ... يُفيدهُمُ رِفاهاً وانتفاعَا

فيمنعهم وما شَعَبُوا مَضَاماً(٢) ... ويُوسِعهمْ وما سَغِبوا انتجاعَا

ولهم رضى الله عنهم ، وسمعت ذلك منهم :

أجِبْ داعِيَيْها فالنجيبُ يُجِيب ... وشُبَّ لَظَاهَا فالنَّخِيبُ(٣) يَخِيبُ

(*) ذكرنا فى المقدمة أن المخطوط تنقصه أوراق من أوله ، قد لا تزيد على اثنتين ، هما أول الفاتحة ، ويبدأ الكلام فى المخطوطة بهذه الأبيات ، وهما من شعر أبى زكريا الحفصى الذى أهدى إليه ابن الأبار هذا الكتاب . وقد حاولت العثور على أصول هذه الأشعار ، فوجدت بعضها ولم أجد الباقى . ومن الواضح أن ابن الأبار تحدث فى الصفحات الضائعة عن شعر الأمراء وكيف أنه دليل على امتيازهم وذكائهم وعلمهم ، وهو معنى سيعود إليه أكثر من مرة فى سياق الكلام ، وقد بينا ذلك فى المقدمة . وقد وضعت نقطاً بين حواصر مكان البياضات فى الأصل ، واكتفيت بهذه الإشارة هنا تحاشياً لتكرار عبارة : « بياض فى الأصل » .

(١) الطِّرْف : الكريم من الخيل .

(٢) فى الأصل : وما شغبوا مضاها ، وقد قومناه كما فى المتن . ومعنى الشطر على هذا هو أنه يحميهم ، ومَن تفرق منهم من الضيم (انظر مادة شَعَبَ فى لسان العرب ، ١/٤٧٩ — ٤٨٠) .

(٣) النخيب : الجبان .

وَشِمْ عَزمةً لا يَغمِزُ[1] العَجْزُ مَتْنَها ... فَذُو العَزْمِ فى اليَومِ الصَّعيبِ يُصيبُ
ولا تَبْتَغِ العَلياءَ إلاّ بأبيضٍ ... لِغَرْبَيْهِ فى هامِ الكُماةِ غُروبُ
وأسمرَ غِرٍّ شَيَّبَ الوقعُ رأسَهُ ... ألاَ إنما بعد القَشيبِ مَشيبُ
وإن شئتَ قُلتَ النجمُ تَوَّجَ رأسَهُ ... فلاحَ لهُ بينَ القُلوبِ ثُقوبُ
يُنَضْنِضُ صِلاًّ ثم يَهْوِى كأنهُ ... رِشاءٌ له قلبُ الكَمِىِّ قَليبُ
وصَفراءَ دَبَّتْها الجُيُوبُ[2] ورَاوَحتْ ... ذوائبَها فوقَ الجُبُوبِ جَنُوبُ
إذا عيجَ مَتْناها أُقيمتْ شَبَاتُها[3] ... فمنها سَرُوبٌ لا يُرَى ورَسُوبُ
فإن سَدِكَتْ بالكَفِّ[4] أو فُلَّ خَطْوُها ... فخطوُ بَنيها فى الحُروبِ رَحيبُ
وأجرَدَ يَسْتجْلى بأوضاحِهِ الوغَى ... وقد جَنَّها يومَ الرُّكوبِ عكُوبُ[5]

---

(١) فى الأصل : يغمق ، وقد صوبها ماركوس مولر (ص ١٦٢) : يغمز ، وهو صحيح .

(٢) هذا البيت من مشكلات هذه القطعة نظراً للجناس اللفظى الذى أراده الشاعر . والبيت كله يدور حول القوس ووصفها . وقد ورد لفظ « الجيوب » هنا واضحاً فى الأصل ، فلم نر ما يدعو إلى تغييره . وقد عدله مولر (ص ١٦٢) إلى « الجبوب » . وكذلك جعله حسن حسنى عبد الوهاب عندما أورد هذه القطعة فى كتابه « المنتخب المدرسى من الأدب التونسى » (الطبعة الثانية ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ، ١٩٤٤) ص ١٠١ . والجَبُوب هو الفرس المَجَبَّب أى المحجَّل إلى ركبتى يديه وعرقوبى رجليه . وأعتقد أن الأصوب هنا « الجُيُوب » والمراد بها الصدور . وسيرد لفظ الجَبُوب فى المصراع الثانى من البيت ، ولهذا فقد استبعدت أن يكرره الشاعر فى بيت مرتين .

(٣) فى الأصل : بناتها . وقد جعلها حسن حسنى عبد الوهاب بُناتها ، وفسر اللفظ بأنه قوائم الفرس ، وعلى هذا الأساس فسَّر « سروب » و « رسوب » . وأعتقد أن الشاعر لا يزال يصف القوس ، وعلى هذا فقد صوبت اللفظ إلى « شَباتُها » ، وباقى البيت مفهوم على هذا التفسير .

(٤) أى شُدت باليد .

(٥) العُكوب : الغبار .

إذا ما استحرّ الضربُ واشتجَر القَنا بدا وهْوَ فى حال [. . . . . .]
له من سَعَالِي الجِنّ خَلْقٌ مُطهَّمٌ(١) يَرُوعُ ، وَمِن هُوجِ الرِّياحِ هُبُوبُ
بتِلكَ يُنالُ الوِتْرُ لوْ حال دونهُ سُهوبٌ ، وحالَتْ عن مَدَاهُ لُهُوبُ(٢)
/فدع عنك أبناء الزمان فكلُّهمْ لَهُ عِند تمحيصِ الغُيوب غُيوبُ [١ – ب]
فلا تُورِدَنْهُ وِرْدَكَ الصَّفْوَ إنَّهُ شَرُوبٌ وعِند الحادثات سَرُوبُ
[... ...] ساوى الرجَال فباسِمٌ لهُ عند هَبّات الخطوبِ خطوب
[. . . . . .] قربى يعرد هايباً ويبأى إذا الحق النؤوب يؤُوبُ
[... ... ...] إلى الخليل محلة وقد جعلت [... ... ...]
[... ... ...] يديْك فإنّه سواء قريب فى الورى وغريبُ
[ألا فـ]اسْتَعِنْ واسْتَغْنِ بالله إنّهُ لَفَتْحٌ بتقـديرِ الرقيبِ قَريبُ

ولهم — أيدهم الله — فى استقبال حضرتهم العلية من بعض غزواتهم الميمونة :

تقر جفون عينكَ بالقـرارِ ومِن شرط الهوى رَعىُ الذَّرارى
ألاحَ البرقُ مُعترضاً فغارَتْ نجومُ الأفْقِ مِن ماء ونارِ
خَفِىّ يسرِى وظل الدمْعُ يَجرى فواحَرَباهُ من سـارٍ وجارِ
وهابَ البدرُ أن يفرى دجاه فمال عن الشِّرار إلى السِّرَارِ
وساءل مسـنداً يَرويه عَنى فحدَّثه الزفيرُ عن ادِّكارِ
سَقى أعـلامَ تونس فالحَنايَا فمُقْتبلَ العَشِـيّةِ والعَرَارِ
فواكَبِدَاهُ من شـوق تناءتْ نهايتُـه على قُرب المزارِ
وأبْرَحُ ما يكون الشوقُ يوماً إذا دَنَتِ الديارُ من الديارِ

(١) كذا فى الأصل . وقد قرأها ح .ح . عبد الوهاب : مطهَّر ، وكذلك فعل مولر (ص ١٦٣) .

(٢) لُهوب جمع لِهْب ، وهو هنا : مهواة ما بين كل جبلين (اللسان ، ١/٢٤١) .

ومن قلائدهم المُزْرِيَةِ بقلائد العِقْيان ، المُرْبِيَةِ على فرائد الجُمان[١] :

وحَوْراءَ تستعلى بنَهدين أشرعَا ولا غَرْوَ أن يدعو هواها فأتْبَعَهْ
تقول ، وقد رقَّتْ لما بى : أجازعٌ وأنت جَرِىٌ والأسِنَّةُ مُشْرَعَهْ ؟
[٢ - ١] /فقلت لها : جفناكِ عزًّا تجلُّدِى ونَهْداكِ هَدَّا نَفْسَ هَيْمانَ مُوجَعَهْ
وما زلتُ ألقَى القِرنَ يَعسِلُ[٢] رمحَه فمن لى بمن يَلقَى الفؤادَ بأربعَهْ ؟

صدر هذا عنهم ، دامت سعادتهم . وقد أُنشِدَ بمجلسهم العلىّ للقاضى أبى بكر بن العربى فى مُداعبٍ له من فتيان الملثَّمةِ هز رمحه عليه وأومأ به إليه :

يهزّ علىّ الرمحَ ظبىٌ مُهفهَفٌ لعوبٌ بألبابِ البَرِيَّة عابثُ
فلو كانَ رمحاً واحداً لاتَّقيتُهُ ولكنَّه رمحٌ وثانٍ وثالثُ

كذا قرأت فى ديوان شِعرهم ، أدام الله تأييد أمرهم . وهما عندى للقاضى أبى محمد عبد الحق بن غالب بن عطية[٣] ، أنشدنيهما القاضى أبو سليمان داوود ابن سليمان بن حوط الله الأنصارى الحارثى[٤] بمدينة بَلَنْسِيَة ، وهو إذ ذاك يتولى

---

(١) يشير ابن الأبار هنا إلى كتابى « قلائد العقيان » لابن خاقان و « فرائد الجمان » أو « الفرائد الجمانية » (طبع فى القاهرة سنة ١٩٠١) لمعين الدين أبى نصر أحمد بن عبد الرزاق الطَّنْطَرَانى المتوفى سنة ٤٨٠ / ١٠٨٧ (انظر بروكلمان ، ملحق ١ ص ٤٤٦) .

(٢) عَسَل الرمح : هزه .

(٣) عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربى ، من أهل غرناطة ، يكنى أبا محمد . ترجم له ابن بشكوال فى « الصلة » (رقم ٨٢٥ جـ ١ / ٣٨٠) ويصفه بأنه « كان واسع المعرفة قوى الأدب ، متفنناً فى العلوم ، أخذ الناس عنه » . توفى سنة ٥٤٢ / ١١٤٧ - ١١٤٨ .

(٤) هو داوود بن سليمان بن داوود بن عبد الرحمن بن سليمان بن خلف . . بن حوط الله الأنصارى الحارثى من أهل أُنْدَة (٥٥٢ - ٦ ربيع الآخر ٦٢١) ، من أكبر فقهاء الأندلس فى عصره وأوسعهم علما وأكثرهم رحلة وشيوخاً . وهو من شيوخ ابن الأبار ، وقد ترجم له ترجمة واسعة فى تكملة الصلة ، رقم ٢٠٥ ص ٦٣ - ٦٥ . ولم يرد لأبى محمد عبد الحق بن عطية ذكر فى هذه الترجمة ولا فى تكملة الصلة .

قضاءها . قال : « أنشدَنا الشيخُ أبو الحسين سِراجُ بن عبد الله العثمانى[١] — مرّاتٍ — للفقيه القاضى أبى محمد عبد الحق بن عطية » ؛ وذكَر البيتين ، إلا أن صدر أولهما فى هذه الرواية « يهددنى بالرمح ظبي مهفهف » ، وصدر ثانيهما « فلو كان رمحاً واحداً لاتقَّيته » ، وباقيهما سواء[٢] . ولمَنْ كان منهما ذلك فقد عُدل به عن جادة الإجادة والزيادة .

ومن لزومياتهم السنية فى غَزَلياتهم السلطانية :

بدت لك فى ثوب يشفُّ منجَّم   أزيْرق — يا لَلّهِ لِلحُسنِ ! — أزرقا
ولاحتْ ، وبدر الأفق فى الأفْق كاملٌ   فلم أدْر أىٌّ راعنى حين أشرقا
خلا أنه لما رأى حُسنَ وجهها   تأنَّى قليــلاً حين شام فأبْرَقا
ودونهما صفوُ الغـــدير مسلسَلاً   فأقسِمُ لولا رقَّةُ الوصل أحْرقا
ولما رنا نحو السَّجَنْجَل وجهُها   أطلَّ على متْن الغــدير فأطرقا
وزَرَّتْ عليه الشُّهبُ ثوبَ سمائه   فقارب فى التشبيـــه منها وأغرقا
ونازعها ثوباً ولوناً ورفعـــةً   وبُعـــداً وإشراقاً ووجهاً ترقرقا

ومن رفيع الوصف وبديع الوصف قولهم ، لا زال يجارى الأقدارَ عدلُهم ويبارى الأمطارَ طَوْلُهم :

/أعِدْ نظراً حيث الرياض كأنها   خدودُ الغوانى أو قدودُ الكواعبِ [٢ - ب]

---

(١) سراج بن عبد الملك بن سراج بن عبد الله بن محمد بن سراج من أهل قرطبة ، يكنى أبا الحسين . ترجم له ابن بشكوال فى الصلة (رقم ٥١٤ ، جـ ١ / ٢٢٦) ولم يذكر نسبته للعثمانية ، وقال عنه : « وكانت له عناية كاملة بكتب الآداب واللغات والتقييد لها والضبط لمشكلها ، مع الحفظ والإتقان لما جمعه منها » . ولد سنة ٤٣٩/١٠٤٧ وتوفى فى جمادى الآخرة سنة ٥٠٨ / ١٠١٧ . أما هذه النسبة العثمانية فترجع إلى ولاء أسرته لبنى أمية وذكر ذلك القاضى عياض .

(٢) روى البيتين المذكورين هنا أحمد بن محمد المقرى فى نفح الطيب (طبعة محيى الدين عبد الحميد ، جـ ٢ ص ٢٣٣ فى ترجمة أبى بكر محمد بن عبد الله بن العربى) بالصورة التى وردا بها فى النص ؛ وقد نسبها إليه .

obeikandi.com

تميل وليست بين كأس وقَينةٍ ولـكنها بين الصَّبا والجنائبِ
وسال نَميرُ الماء بين اخضرارها فجاء كمثل الفرق بين الذوائبِ
وإلا كما شـق الـكَنَهْوَر بارقٌ وإلا كمِثل الصبحِ بين الغياهبِ
قدِ اطَّرَدَتْ فيـه المذانبُ دائماً ولم ترَ حُسناً كاطِّراد المذانبِ
ولِلنَّرجس النَّضْر اصفرارٌ تخالُه كشَمس أصيلٍ بين بِيض السحائبِ
يَدبُّ إليك الحسْنُ فى جَنَباتِها بعَقربِ أصداغٍ منَ الآسِ لا سِبِ
ولِلياسَمينِ الغضِّ فى خُضْرِ بُسْطِها نَثائرُ دُرٍّ أو سبائكُ ساكبِ
وللسَّوْسَنِ المُبْيَضِّ إصغاء آلفٍ يَحِنُّ فيحنُو خاشعاً نحو شاربِ
وقد كُلِّلتْ أغصانُ نارَنْجِها ، فَقُلْ مجامرُ تِبرٍ جامدٍ غـيرِ ذائبِ
وعَطَّر منها النَّشْرُ ما بَلَّل الندى فنمَّتْ بأنفاسِ الرياح الغرائبِ
وللماء فى الدولاب ـ إن رُمتَ وَصْفَه ـ سِهامُ قِسِيٍّ أو مخاريقُ لاعبِ
تضَمَّنَ سَقْىُ الروض رفهاً يَعُلُّه وفاء فعدِّ القولَ عن قوْس حاجبِ
مُعطرة الأردانِ يَفْغَمِ نفحُها يُحيِّيك عَرف الطيب من كل جانبِ
سماء ، وجَرىُ الماء فيها مَجرَّةٌ ومن زهرها المفترِّ زُهْرُ الـكواكبِ
فدونَـكَها تختال زهواً ونُضرةً وترفُلُ تِيهاً فى بُرودِ العجائبِ (١)

ولهم — خلَّد الله سلطانَهم — فى طبق مملوء تناثر زهر النارنج والخابور ،
وأكثرُ هذا التشبيه على البديهة :

بَعثتها وذَكِىُّ العَرْف ألحَقها بُرْدين من وَضح الإصباح والشَّـفَقِ
كأنما الزهرُ والخابورُ جَزَّعهُ شَذَرٌ تناثر فى دُرٍّ من العُنُقِ
قد راق منظره حُسناً لمُلتَفِتٍ ورَقَّ مَخْبَرُه عَرْفاً لمُنتشِقِ

(١) ورد هذا البيت الأخير فى الهامش بخط مخالف .

/ولهم — ظاهَرَ اللهُ نِعَمه لديهم — مما كتبْتُه بينَ الكريمتين يديْهم : [٣-١]

خُذها كما نَمَّ عَرْفُ الرّوضِ بالسَّحَرِ وأيقظَ الطَّلُّ ريّا نائمِ الزَّهَرِ
حمراء ترفُل فى أثوابِ بهجتها تَفْتَرُّ عن لؤلؤٍ عَذْبٍ وعَن أشَرِ (١)
زَفَفْتُها وَرِوَاق الليــل مُنْسَدِلٌ كأنها شَــفَقٌ فى هالةِ القمرِ

ومن ألغازهم ، وسَمِعتُ منهم رضى الله عنهم :

سَحَرتْ أعينُ الجآذِرِ لُبِّى واستباحتْ حِمَى فؤادى وقلبى
[. . . . . . .] مِنها اشتباهٌ فانظرنَّ التَّصحيفَ مِنْ بعد قَلْبِ

وقد استوفوا حروف المعجم فى هذا الباب ، فأتوا — أيدهم الله — [بما فيه] عبرة لأولى الألباب .

ولهم فى الرثاء ، أدام الله أيامهم كما جعل مفاتيحَ الأقاليم سيوفَهم وأقلامَهم :

تَصَبَّرْ فإنَّ الصبر أولى بذى حِجْرٍ وإن كان حِجْراً فالمَلامُ إلى الحِجْرِ (٢)
وما زالتِ الأيامُ تَغْدُو على الفتى فطوْراً على بِشْرٍ وطوراً على بِسْرِ (٣)
وإنْ سالَمَتْ ، والظلمُ منها سَجِيَّةٌ فلا بدَّ يوماً أن تَغُرَّ وأن تُغْرِى
مَرَى (٤) الحزْنُ دمْعى أن أمَرَّ حِبالَهُ وكان قديماً لا يُمِرُّ ولا يَمْرِى
وعهدى بهذا الدمع يا عينُ وافياً فهل لك فى الغَدرِ المبرِّح مِن عُذرِ ؟
ألا مَن لعينٍ لا يُنَهْنَهُ غرْبُها ألا مَن لِـحَزٍ لا يملُّ من السَّحْرِ ؟
ألا تلك شمس الجوِّ فى الدَّوِّ (٥) فاعجبوا ألا تِلكُمُ إدمانةُ العفر فى القَفْرِ

---

(١) تأشير الأسنان تحزيزها وتحديد أطرافها .
(٢) الحِجْر الأولى والثانية بمعنى العقل ، والثانية بمعنى حرام .
(٣) بسر الرجلُ وجهَه : كَلَح .
(٤) مراه حقَّه : جحده .
(٥) الدو : المفازة .

أأسلو وهذا شخصُها حَشْوُ مُقْلتي وأنْسَى وما تنفكُّ منى على ذِكرِ ؟
لئن ضمَّ مِنكِ اللحْدُ ذاتاً زكيةً لقد حُنِيَتْ منى الضلوعُ على جَمْرِ
سأبكيكِ ما أنَتْ فقيدة بِكرها وحنَّتْ إلى وَكْرٍ مُطوَّقةُ النَّحْرِ
[٣-ب] / أُطارِحُها شَجْوِى فيُسْعِدُ شَجوَها فتحسبُنا إلْفَىْ مُصابٍ لَدَى وَكْرِ
ومَالى ومَا للعيـدِ لولا تَحَفُّلٌ يُـكلفُنى مالا أطيقُ من الصبرِ
فمَنْ كان ذا هَدْىٍ وهدْىٍ لعيدهِ فعندِىَ هدْىٌ من مدامعِىَ الحُمْرِ
يُغادُونها قُرْبَى لنَحْرٍ ثلاثةً ودمعِىَ من تِسْكابِهِ الدهرَ فى بحرِ
وعندى ولا رَدٌّ زفـيرٌ مردَّدٌ تهـدّ لظاه جانبَ البِشْرِ(١)
وتصديقُ إيمانٍ وإقرارُ موقنٍ وتسليمُ مربوبٍ لذى الخَلْق والأمْرِ

ومن تصنيف لهم فى الزهد جليل ، هو على انفرادهم فى الكمال وسحر الـكلام أوضح دليل :

يَعْجَل الإنسانُ بالشىء ، وهلْ خُلِق الإنسانُ إلا من عجلْ ؟
ولِذِى العدلِ قضاءٌ فى الورى يتقاضاه كتابٌ وأجلْ
إنَّ ظُفْرَ الليث يدمى مِن ردًى مثل خَدِّ الخَوْدِ يدمى من خَجَلْ
وأخو الغفـلةِ فى غَفْلَتِهِ إنْ بكتْ وَرقاءُ غَنَّى وَارْتَجَلْ

وإنما أورِد منه الفرائد ، وأقصد إليه من القصائد ، وها هى تضيق عنها المهارق(٢) ، وتضىء منها المغارب والمشارق ، وإنما هذا إلماع بما أعوز العلماء ، وإسماع لما أسكت الحـكماء .

ولما ظفرتُ من هذا المقصود الأحمد ، وسبقتُ إليه سبق الجواد إذا استولى على الأمَد ، قصرتُه على ملوك إفريقِيَّةَ وبلاد المغرب المضافة إليها ، وقدمتُ

---

(١) كذا فى الأصل . ولعله يقصد بالأولى البِشْرَة وبالثانية السرور .
(٢) الصحف .

القادمين فى المائة الأولى من السلف الأول عليها ، لأنها من أوائل فتوح الإسلام ، ثم من منازل بدرِ التمام مولانا الخليفةِ الإمامِ ، أدام الله لهم نصر الألوية والأعلام .

وفى المائة الثانية صارت الأندلس دارَ إيمان ، فواليتُ ذكر ولاتها من ذلك الزمان ، ليوقَفَ على جلالة شانهم ، ويُعرف تمكن محلهم من البلاغة ومكانهم ، وذكرتُ أبناءهم ، واختصرتُ أنباءهم ، هربا من التطويل ، ورَهَباً للتثقيل ، إلا نُكتاً لها بانتخابها أحسن المواقع/وعيوناً هى باقتضابها أجْوَلُ فى المحافل [٤-١] وأوْلَجُ فى المسامع . وربما عرض ما يدعو إلى البسْط فانتقض حُكم هذا الشرط ، ولا غرو أن أواقع المحذور ، فللكلام اضطرار يُبيح المحظور .

وأبرزتُه مَسُوقاً على العِقَب ، منسوقا بحسب الرُّتَب ؛ أعيِّن للصدور صدرَ كل مائة ، وأبيِّن من تميَّز فى جماعة أو تحيَّز إلى فئة ، ليستوفى المتأدبين ، حتى من المتوثبين .

والذين ما عثرت على أشعارهم ، أفردت باباً لأخبارهم ، ولم أعرض لمن أعرَضَتْ عنهم الدولةُ الحَفْصِيَّة بالخُلْعان ، وانتزعت ما كان بأيديهم تراثاً لها من الملك والسلطان .

ثم [. . . . .][1] الاسم الذى من خصائصه التأمين والتأمير وأشبهه [. . . . .][2] النضير والمَشْرَع النَّمير حضرة مولانا الأمير [. . . . .][3] الأسعد الأطهر الأرضَى أبو يحيى ولى عهد المؤمنين[4] ، وعَهْدُ الولىِّ فى متتابعات السنين ،

---

(١) بياض بقدر كلمتين .

(٢) بياض بقدر كلمتين .

(٣) هنا مكان كلمتين مبثورتين من الأصل ، وآثار البشر واضحة .

(٤) كذا فى الأصل ، وصحته أبو زكريا يحيى وهو ابن أبى عبد الله محمد الحفصى الملقب بالمستنصر ثانى أمراء الحفصيين (٦٤٧ - ٦٧٥ / ١٢٤٨ - ١٢٧٧) . وفى خدمة المستنصر عمل ابن الأبار . والإشارة هنا إلى ولى عهده أبى زكريا يحيى الذى خلفه على العرش سنة ٦٧٥ / ١٢٧٦ - ١٢٧٧ وتولى بعده وتلقب بالواثق . وقد فرغ ابن الأبار من « الحلة السيراء » خلال سنة ٦٤٩ / ١٢٥١ أو بعدها بقليل ، أى أيام كان أبو زكريا يحيى الواثق ولياً للعهد . (انظر : ابن خلدون ، تاريخ ٦ / ٢٩٦) .

والملىّ[١] وقد [...][٢] مكارم الآباء بإنجاب كرام البنين . أجْهَدُ فى الاستظهار على شكر نعمته ، وأجهر آناء الليل وأطراف النهار بأن [يكون][٣] العمل خادم النية فى خدمته . وأقصى المأمول أن تأذن له[٤] سيادتُه فى القرب من سُدَّته ، وتقابل وفادته بالقبول ليسعد مداه بسعادة مدته . أبقاه الله ولواؤه منصور ، وكرم الخلال فيه محصور ، وشرف الكمال عليه مقصور ، والعيون والقلوب إليه ميلٌ وصور ، بمنه .

(١) كذا فى الأصل ، وصحة هذا اللفظ تتضح إذا عرفنا ما بعده ، وهو مضطرب فى نسختنا .

(٢) بياض بقدر كلمة فى معنى : عُهِدَت .

(٣) أضفت هذه الكلمة للسياق .

(٤) الضمير هنا عائد على العمل .

obeikandl.com

المائة الأولى من الهجرة

١ — عَمرو بن العاصى، أبو عبد الله

قرأت بخط أحمد بن يحيى بن جابر البَلاَذُرِىّ فى كتاب « أنساب الأشراف » من تأليفه : قال محمد بن سعد : قال الواقِدِىّ من خبر عَمرو ابن العاصى إنه قدم على النبى صلى الله عليه وسلم مُسْلِما فى صفر سنة ثمانٍ — قبل فتح مكةَ بأشهر ؛ وكان الفتحُ فى شهر رمضان — فوجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جمادى الآخرة سنة ثمان إلى ذات السلاسل فى سَرِيَّة ، ومعه أبو بكر وعُمر وأبو عُبَيْدة بن الجَرّاح رضى الله عن جميعهم[1] . قال : ثم بعث به إلى ابنَىْ الجُلَنْدَى بعُمان فأسْلَما ، وكان أميراً عليها . فلم يزل عَمرو بعُمان حتى قُبض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم .

قال : وعَمرو بن العاصى هو الذى فتح مصر ونواحيها فى خلافة عُمر/ وعزَله [٤ - ب] عثمانُ عنها .

وقال غير البَلاَذُرِىّ : ثم صار من مصر حتى قدم بَرْقَةَ ، فصالح أهلَها على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها إليه جزية ، على أن يبيعوا من أبنائهم

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (طبعة دار صادر ودار بيروت . بيروت ١٩٥٧) : ١٣١/٢ .

فى [جزيتهم « ما أحبوا بيعه »][1] [وعلى يديه تم فتح المسلمين][2] لبرقة . ثم غزا فى سنة ثلاث وعشرين إطرابلس ، فحاصرها شهراً لا يقدر منها على شىء ، ثم افتتحها فى قصة غريبة ذكرها أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحَكَم فى تاريخه[3] ، وغنم ما فيها ولم يفلت الروم إلا بما خفَّ لهم فى مراكبهم . وأراد أن يُوَجِّه إلى المغرب فكتب إلى عُمر رضى الله عنه : « إن الله عز وجل فتح علينا إطرابلس ، وليس بينها وبين إفْرِيقِيَّةَ إلا تسعة أيام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها اللهُ على يديه فَعَلَ »[4] ، فكتب إليه عُمر ينهاه عن ذلك .

الظاهر من هذا الخبر تحيُّزُ إطرابلس من إفْرِيقِيَّة[5] ، ولم تزل من أعمالها قديما وحديثا . قال ابنُ عبد الحَكَم : « كان سلطان جُرْجِير من إطرابلس إلى طَنْجَة » . وبهذا الاعتبار ساغ لى ذِكر عَمرو رضى الله عنه فى هذا الكتاب .

ومن شعره يخاطب عُمَارة بن الوليد — أخا خالد بن الوليد — عند النجاشى ،

---

(١) أضفت كلمة « جزيتهم » هنا للسياق ، وأكملت النص من فتوح ابن عبد الحكم (طبعة توري) ص ١٧٠ - ١٧١ وفتوح البلدان للبلاذرى (القاهرة ، بدون تاريخ) ص ٢٢٤.

(٢) عبارة الأصل هنا مضطربة . فبعد البياض الذى سددناه (راجع الهامش السابق) وردت كلمتا : « لبرقة إطرابلس » ، وهى عبارة غير صحيحة ، لأن برقة — إذ ذاك — لم تكن تابعة لإطرابلس ، ومن ثم فهى لا تنسب إليها . ولما كانت كلمة إطرابلس ترد فى آخر السطر فى المخطوط ، فقد رجحت أن ناسخاً أضافها كعنوان صغير فى الهامش ، ثم أدرجها من أتى بعده فى المتن ، فاختل المعنى . فاستغنيت عنها ، وقومت النص بحسب ما أعرف عن فتح العرب للمغرب .

(٣) راجع هذه القصة فى فتوح ابن عبد الحكم ، ص ١٧١ — ١٧٢ ، وانظر عنها كتابنا « فتح العرب للمغرب » (الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٤٧) ص ٦١ .

(٤) راجعت النص على أصله عند ابن عبد الحكم (فتوح ، ص ١٧٢) وبقية النص : « فكتب إليه عمر : لا ، إنها ليست بإفريقية ، ولكنها المفرقة ، غادرة (أيضاً : الغادرة) مغدور بها ، لا يغزوها أحد ما بقيتُ » .

(٥) يريد أن إطرابلس داخلة فى حوز إفريقية ، أى تبع لها .

وكانت قريش بعثتهما إليه يكلمانه فى مَن قدم عليه من المهاجرين رضى الله عنهم[١] :

تَعَلَّمْ عُمَار أنّ مِن شرِّ شُبْهةٍ[٢] لِمثلك أن يدعَى ابن عم له انتمى[٣]

لئن كنتَ ذا بُرْدَيْن أحْوى مرجَّلا فلستَ براء لابن عمك مُحرما

إذا المرء لمْ يتركْ طعامًا يُحبــهُ ولمْ يَنْهَ قَلبًا هائمًا[٤] حيث يَمّما

قَضَى وَطرًا منهُ[٥] ، وغادر سُبَّةً إذا ذُكِرتْ أمثالُها تملأُ الفَما

وقال أيضاً فى حروب صفين :

شُبَّتِ الحربُ فأعــددتُ لها مفرغ الحاركِ[٦] مَحْبُوكَ السَّبَجْ

---

(١) روى البلاذرى فى « أنساب الأشراف » (طبعة الدكتور حميد الله ، القاهرة ١٩٥٩) ٢٣٣/١ – ٢٣٤ هذه الأبيات فى خبر ما وقع بين عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد فى الحبشة . وكان عمرو قد بعثته قريش مع عبد الله بن أبى ربيعة إلى الحبشة ليكيدا للمهاجرين المسلمين هناك ويغريا النجاشى بالتخلى عن حمايتهم ، بل القضاء عليهم . أما عمارة بن الوليد فكان قد خرج إلى الحبشة فى تجارة له ، وركبا نفس السفينة ، وكانت مع عمرو امرأته ، فسعى عمارة فى الاتصال بها . ووقع الخصام بين الرجلين ، فلما وصلا إلى الحبشة استطاع عمارة أن يتصل ببعض نساء النجاشى . ويبدو أنه كان جميلا مفتونا بنفسه ، فلم يزل عمرو بن العاص يحتال عليه حتى حصل منه على ما يثبت اتصاله بتلك المرأة ، ثم أسرع بالأمر إلى النجاشى ، فغضب على عمارة ويقال إنه قتله . وفى هذه الأبيات يلوم عمرو بن العاص صاحبَه عمارة على ما سولته له نفسه من العدوان على امرأة ابن عمه عمرو . والخبر كله مشكوك فى صحته ، والأبيات – بالتالى – مشكوك فى أصالتها .

(٢) فى « أنساب الأشراف » : شيمة .

(٣) فى « أنساب الأشراف » : ابنما ، وهى قراءة غير صحيحة .

(٤) فى « أنساب الأشراف » : غاوياً .

(٥) فى « أنساب الأشراف » : منها .

(٦) الحارك من الفرس : كاهله .

يَصِلُ الشَّــدَّ بِشَدٍّ فإذا   وَنَتِ الخيــلُ مِنَ الشدِّ مَعَجْ
جُرْشُــعٌ أَعْظَمُهُ جُفرَتُهُ   فإذا ابتــلَّ مِنَ الماء حَدَجْ(١)

وقال يخاطب معاويةَ بن أبى سفيان رضى الله عنه :

مُعَاوِىَّ إنى بِعتُ دينى ولم أَنَلْ(٢)   به منك دنيا(٣)، فانظُرَنْ كيف تصنعُ
وما الدين والدنيا سواء ، وإننى   لآخــذ ما تعطى ورأسى مقنَّعُ
فإن تُعْطِنى مصراً فأَرْبِحْ بصفقةٍ   أخذتَ بها شيخاً يضر وينفعُ(٤)

[٥ - ١] / قال عَمرو هذا لأنه شرط على معاوية لما تحيز إليه — وكان معه فى حروبه لعلىّ رضى الله عنهم — أن يوليه ، إذا ظهر ، مصرَ طُعْمَةً ؛ فوفى له بذلك .

ورُوى أن عُتبَة بن أبى سفيان دخل على معاوية أخيه وهو يكلم عَمراً فى مصر ، وعَمرو يقول له : « إنما بِعتُك بها دينى » ، فقال له عُتْبة : « أثمِنِ الرجلَ بدينه فإنه صاحب من أصحاب محمد »(٥) .

---

(١) لم أجد هذه الأبيات فى كتاب « وقعة صفين » لنصر بن مزاحم المنقرى (طبعة عبد السلام هارون) ، القاهرة ١٣٦٥ ، وهو يضم أكبر مجموع من الشعر قيل أثناء معارك صفين .

(٢) وردت هذه الأبيات فى « وقعة صفين » ص ٤٤ . وقد ورد فيه هذا المصراع هكذا : « معاوىَّ لا أعطيك دينى ولم أنل » .

(٣) فى « وقعة صفين » : بذلك دنيا ، وفى مخطوط آخر : به منك .

(٤) وردت هذه الأبيات بنظام آخر فى « وقعة صفين » ، وها هى بعد البيت الأول :

فإن تعطنى مصراً فأربح بصفقة   أخذت بها شيخاً يضر وينفع
وما الدين والدنيا سواء ، وإننى   لآخذ ما تعطى ورأسى مقنع
ولكننى أغضى الجفون ، وإننى   لأخدع نفسى ، والمخادع يُخدع
وأعطيك أمراً فيه للملك قوة   وإنى به إن زلَّت النعل أضرع
وتمنعنى مصراً وليست برغبة   وإنى بذا الممنوع قدماً لمولع

وقد ورد المصراع الثانى من البيت الرابع هكذا :

وألْقَى به إن زلت النعل أُصرَع

(٥) أورد نصر بن مزاحم المنقرى حديث معاوية بن أبى سفيان مع عمرو بن العاص وكلام عتبة بن أبى سفيان بتفصيل (ص ٤٤) وهو هناك يختلف فى معناه ومبناه عما هو هنا .

فأقام على مصر إلى أن توفى فى خلافة معاوية[١] . ومما يُعزى إليه :

وأُغْضِى على أشياء لو شئتُ قلتُها ولو قُلتها لم أُبقِ لِلصُّلح موضعَا
فإن كان عُودِى من نُضارٍ فإننى لأكره يوماً أن أحطم خِرْوَعَا[٢]

وأنشد له ابنُ إسحاق صاحب « المغازى » فى يوم أُحُد ما لم أر وجهاً لذكره .

٢ - ابنه عبد الله بن عَمرو بن العاصى ، أبو محمد

ذكره أبو بكر عبد الله بن محمد المالكى فى الداخلين إفريقِيَّةَ من الصحابة رضى الله عنهم[٣] ، وهم قريب من ثلاثين رجلا . وكان يخلُف أباه على إمارة مصر ، إذ وَلِيَها عَمرو فى خلافة عُمر بن الخطاب [و] فى خلافة معاوية . وهو صلَّى على أبيه عند وفاته ، ثم صلى بالناس يومَ الفطر . ولم يكن بينه و بين أبيه فى السن إلا اثنتا عشرة[٤] سنة ، وأسلم قبله ، وكان أحد فقهاء الصحابة وفضلائهم ، والمكثرين من الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم[٥] .

---

(١) ورد بالهامش مقابل هذا السطر ما يلى : توفى بمصر ليلة الفطر سنة ثلاث وأربعين وهو ابن تسعين سنة ، ودفن بالمقطم من ناحية « الفج » ، وكانت طريق الناس إلى الحجاز . صح : من در السحابة للجلال الأسيوطى (كذا) .

(٢) جاء فى « اللسان » : ... وكلُّ نبت ضعيف يتثنى خروع : ٩/٤٢٠ .

(٣) انظر « رياض النفوس » لأبى بكر بن أبى عبد الله محمد المالكى (بتحقيق ناشر هذا الكتاب ، حـ ١ ، القاهرة ١٩٥١) رقم ٤ ص ٤٣ - ٤٤ .

(٤) فى « رياض النفوس » (ص ٤٣) : وكان بينه وبين أبيه فى العمر ثلاث عشرة سنة .

(٥) ورد فى الهامش مقابل هذا السطر بخط مختلف عن خط المخطوط : «ط. توفى بمصر ودفن بداره سنة سبع وسبعين فى خلافة عبد الملك وسنه اثنتان وسبعون سنة . صح : من در السحابة » .

قال أبو محمد بن حزم الفقيه : روى عبد الله بن عَمرو بن العاصى سبعمائة حديث .

وفى تاريخ ابن عبد الحَكم أن عثمان رضى الله عنه كتب إلى عبد الله بن سعد بن أبى سرح يؤمِّره على مصر [سنة خمس وعشرين] فجاءه الكتاب بالفيوم بقرية منها تدعى « دموشة » ، فجعل لأهل الجواب[1] جُعْلا على أن يصبحوا به الفسطاط فى موكبه . فقدموا به الفسطاط قبل أن يصبح [الصبح ، فأشار][2] إلى المؤذن فأقام الصلاة حين طلع الفجر ، وعبدُ الله بن عَمرو بن العاصى ينتظر المؤذن يدعوه إلى الصلاة ، لأنه كان خليفة أبيه ، فاستنكر الإقامة ، فقيل له : صلى عبدُ الله بن سعد بالناس .

قال ابن عبد الحَكم : يزعمون أن عبد الله بن سعد أقبل من غربى المسجد بين يديه شمعة ، وأقبل عبدُ الله بن عَمرو من نحو داره بين يديه/شمعة . فالتفت [٥ - ب] عند القبلة فأقبل عبدُ الله بن عمرو حتى وقف على عبد الله بن سعد فقال : هذا بَغْيُك ودَسُّك ! فقال عبدُ الله بن سعد : ما فعلتُ . وقد كنتَ أنت وأبوك تحسدانى على الصعيد ، فتعالَ حتى أوليك الصعيد ، وأُوَلِّى أباك أسْفَلَ الأرض ، ولا أحسدكما عليه .

وكان عزل عَمرو بن العاصى عن مصر وتولية عبد الله بن سعد فى سنة خمس وعشرين ، صَدْرَ خلافة عثمان رضى الله عنه . ومن شعر عبد الله بن عَمرو فى صفين :

فلو شهدتْ جُمْلٌ مَقامى ومَشْهدى بصفِّين يوماً شابَ منه الذوائبُ
عَشِيَّةَ جا[3] أهلُ العراقِ كأنهم سحابُ ربيعٍ دَفَّعَتْه الجنائبُ[4]

(١) فى الأصل : الطواف ، والتصحيح من ابن عبد الحكم وأبى المحاسن بن تغرى بردى.
(٢) سقطت كلمات هنا ، فأضفت ما بين الحاصرتين ليتصل السياق .
(٣) فى « وقعة صفين » لنصر بن مزاحم المنقرى (ص ٤٢١) : غداة غدا .
(٤) فى نفس المصدر : من البحر موج لجه متراكب .

وجئناهمُ نَرْدِى[١] كأنَّ صفوفَنا ... منَ البحرِ مَدٌّ موجُه مُتراكبُ[٢]
إذا قُلتَ : قد ولَّوْا سِراعاً، بَدَتْ لنا ... كتائبُ منهمْ فارْجَحَنَّتْ كتائبُ[٣]
فدارتْ رحانا واستدارتْ رحاهُمُ ... سَرَاةَ النهار ما تُوَلَّى المناكبُ
وقالوا لنا : إنا نرى أن تُبايعوا[٤] ... عَلِيًّا ، فقلنا : بل نرى أن تُضارِبوا[٥]

هكذا وجدت هذا الشعر منسوباً إليه ، وخلاف هذه الحال كان [... ...][٦]. على أن أبا الفتوح الطائى البغدادى قد حكى فى كتابه « الأربعين حديثاً » مِن جَمْعه أن عبد الله بن عمرو شهد مع أبيه صفين ، وكان يضرب بسَيْفين . والأصح هو الذى رواه أبو عُمر بن عبد البر [فى خبر يسنده][٧] إلى ابن

---

(١) رَدَى فى البئر يردى إذا سقط فيها أو تهور من جبل . وفى « وقعة صفين » : نمشى .

(٢) ورد هذا البيت فى « وقعة صفين » هكذا:

وجئناهم نمشى صفوفا كأننـــا ... سحاب خريف صففتـــــه الجنائب

وبعد هذا البيت بيت لم يورده ابن الأبار. هو:

فطار إلينـا بالرماح كُماتُهم ... وطرنا إليهم والسيوف قواضب

(٣) فى نفس المصدر والصفحة ورد هذا البيت هكذا :

إذا قلت يوما : قد وَنَوْا! برزت لنا ... كتائب حمر وارجحنت كتـائب

(٤) ورد هذا الشطر عند نصر بن مزاحم المنقرى هكذا :

فقالوا : نرى من رأينا أن تبايعوا .

وفى الأصل : أن نضارب ، ولا تستقيم به القافية ، فجعلته كما هو فى المتن .

(٥) أورد نصر بن مزاحم بعد هذا ثلاثة أبيات :

فأبنا وقد قالوا سراة رجالنـا ... وليس لمـا لاقـوا سوى الله حاسب
فلم أر يوماً كان أكثر باكياً ... ولا عارضاً منهم كيأً يـكالب
كأن تلالى البيض فينـا وفيهم ... تلألؤ برق فى تهامة ثاقب

(٦) بياض بقدر كلمتين .

(٧) أضفت هذه الكلمات للسياق . والخبر وارد فى « الاستيعاب فى معرفة الأصحاب » لأبى عمر يوسف بن عبد البر النمرى (طبعة المطبعة التجارية على هامش «الإصابة فى تمييز الصحابة » لأحمد بن على بن محمد العسقلانى المعروف بابن حجر . القاهرة ١٩٣٩) ٢/٢٤٠ .

أبى مُلَيْكة أن عبد الله بن عمرو بن العاصى كان يقول : « مالى ولصفين ؟ مالى ولقتال المسلمين ؟ والله لوددت أنى متُّ قبل هذا بعشر سنين » . ثم يقول : « أمَا والله ما ضَربتُ فيها بسيف ، ولا طَعنت برمح ، ولا رَميت بسهم ، ولوددت أنى لم أحضر شيئاً منها . وأستغفر الله عز وجل من ذلك وأتوب إليه » . قال أبو عُمر : « إلا أنه ذُكر أنه كانت بيده الراية يومئذ ، فَنَدِمَ ندامة شديدة على قتاله مع معاوية . قال : وأقسَم أنه إنما شهدها لعزمة أبيه عليه فى ذلك ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « أطع أباك » . ذكر أبو عُمر هذا[1] فى كتاب « الاستيعاب فى الصحابة » من تأليفه ، ولكن الشعر — مع هذا — مذكور له فى مصنف أبى بكر بن أبى شيبة وغيره .

٣/ — عبد الله بن عباس ، أبو العباس[2] [٦ - ١]

غزا إفريقيَّة مع عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح فى خلافة عثمان سنة سبع وعشرين وشهد فتحها ؛ ذكر ذلك أبو سعيد بن يونس فى تاريخه . ثم وَلِىَ إمارة البصرة فى خلافة علىّ رضى الله عنه حين استعمل أخويه عُبَيد الله على اليمن ومَعبدًا على مكة . وكان لعبد الله بن العباس من عُمر بن الخطاب مكان . وقال لعبد الرحمن بن عوف ، وقد كلمه فى حُظوته لديه : « إنه من حيث علمتَ » .

---

(١) انظر المصدر السابق ، ٢/٢٤٠ - ٢٤١ .

(٢) فوق هذا العنوان بخط مختلف عن خط المخطوط : « ط. توفى رحمه الله بالطائف سنة ثمان وستين ، وهو ابن إحدى وسبعين سنة . وكان يسمى البحر لسعة علمه . صح . من در السحابة » .

وكان يقول : « ابن عباس فتى الكهول ، له لسان سَؤُول وقلب عَقُول » ؛ ويقول إذا سأل [انَ عباس] فى الأمر يعرض مع جلة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : [كيف تلومونني عليه بعد ما ترون ؟][1]

وفى كتاب « الأغانى » لأبى الفرج الأصبهانى أن عُيَيْنة بن مِرْداس [ابن فَسْوَة] الشاعر ، وهو المعروف بأبى فسوة ، أتى عبدَ الله بن العباس — وهو عامل لعلىّ بن أبى طالب على البَصرة ، وتحتــه يومئذ شُمَيْلة بنت جُنادة بن أبى أُزَيْهِر[2] الزهْرانية ، وكانت قبله تحت مُجاشِع بن مسعود السُّلمى — فاستأذن عليه فأذن له ، وكان لا يزال يأتى أمراء البصرة فيمدحهم فيعطونه ويخافون لسانه . فلما دخل على ابن عباس قال له : « ما جاء بك [إلىّ] يا ابن فَسوة ؟ » فقال له : « وهل دونك مقصدًا[3] أو وراءك معدًى ؟ جئتك لتعيننى على مروءتى وتصل قرابتى » ، فقال له ابن عباس : « وما مروءة مَن يعصى الرحمٰن ويقول البهتان ويقطع ما أمر الله به أن يوصَل ؟ والله لئن أعطيتك لاعيننَّك على الكفر والعصيان ! انطلق ! فأنا أقسم بالله لئن بلغنى أنك هجوت أحدًا من العرب لأقطعنّ لسانك » ، فأراد الكلام فمنعه مَن حضر ، وحبسه يومه ذلك . ثم أخرجه عن البصرة ، فوفد إلى المدينة بعد مقتل علىّ [عليه السلام] ، فلقى الحسن [بن علىّ عليه السلام] وعبد الله بن جعفر [عليهما السلام] فسألاه عن خبره مع ابن عباس فأخبرهما ، فاشتريا عِرضَه بما أرضاه ، فقال يمدحهما ويلوم ابن عباس من أبيات :

---

(١) استعنت فى سد فراغ هذا الخبر بماذكره ابن سعد فى طبقاته فى سيرة ابن عباس : « أخبرنا هُشيم بن بشير ، قال : أخبرنا أبو بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : كان عمر بن الخطاب يأذن لأهل بدر ويأذن لى معهم . قال : فذكر أنه سألهم وسأله ، فأجابه ، فقال لهم : كيف تلومونى عليه بعدما ترون ؟ » الطبقات ٢/٣٦٥ .

(٢) فى الأغانى ١٩/١٤٣ : شميلة بنت جنادة بن بنت أبى أزهر الزهرانية .

(٣) فى الأغانى ١٩/١٤٣ : وهل عنك مقصرا .

لقيتُ[١] ابنَ عباسٍ فلم يقض حاجتى ولم يَرجُ معروفى ولم يَخْشَ مُنكرى
فلو كنتُ من زَهرانَ لم ينسَ حاجتى ولـكننى مولى جَميلِ بنِ مَعْمَرِ
فليتَ قَلُوصى أغربتْ أو رَحَلْتُها[٢] إلى حَسَنٍ فى داره وابن جعفرِ
[٦-ب] /إلى ابن رسول الله يأمر بالتُّقَى وللدينِ يدعو والـكِتابِ المطَهَّرِ
إلى معشر لا يخصِفون نعالَهم ولا يلبسون السِّبْتَ ما لم يُخَصَّرِ
فلما عرفتُ اليأسَ منه وقد بدتْ أيادى سَبَا الحاجاتِ للمتذكِّرِ
تسَنَّمتُ حرْجُوجاً كأنّ بُغامَها أجيجُ[٣] ابنِ ماء فى يراعٍ مفجرِ
فما زلتُ فى التسْيار حتى أنَخْتُها إلى ابن رسول الأمة المتَخَيَّرِ
فلا تَدَعُنِّى إذ رحلتُ إليـكمُ بنى هاشمٍ أن تصدرونى بمصدرِ[٤]

قال أبو الفرج : كان عُيَيْنة هـــذا شاعراً خبيث اللسان مَخُوفَ المعرة فى جاهليته و إسلامه ، وكان يقدم على أمراء العراق وأشراف الناس فيصيب منهم بشعره . قال : وكان حليفاً لجميل بن مَعْمَر القُرَشى . ومن شعر عبد الله بن العباس ، وكان أبوه العباس أيضا شاعراً :

إذا طارقاتُ الهمِّ ضاجَعْنَ الفتى وأعمل فـكرَ الليلِ ، والليلُ عاكرُ
[وباكَرَنى][٥] فى حاجةٍ لم يجدْ لها سوايَ ولا من نـكبة الدهر ناصرُ

---

(١) هذه الأبيات واردة فى « الأغانى » : ١٩/١٤٤ . ولم يوردها ابن الأبار على توالها ، وإنما اختار منها .

(٢) عند أبى الفرج الأصبهانى : « فليتَ قلوصى عريت أو رَحلتُها » . والقلوص من النوق : الشابة .

(٣) الأغانى : أحيح .

(٤) الأغانى : لمصدر.

(٥) بياض بالأصل ، وقد أكلته من كتاب « العمدة » لا بن رشيق (طبعة محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٣٤) ، ١/٢٣ .

فَرَجَتْ بمالى هَمَّــهُ من مُقامِه وزايله هَمٌّ طَروقٌ مســامِرُ
وكان له فضلٌ علىَّ بظنِّهِ بىَ الخيرَ ، إنى لِلَّذِى ظنَّ شاكرُ

وقال أيضا وقد عَمِى فى آخر عمره ، ورُوى عنه من وجوه : قاله أبو عمر ابن عبد البر وغيره :

إن يأخذِ اللهُ من عينىَّ نورَها ففى لسانى وقلبي منهما نورُ
قلبي ذكىٌّ وعقلى غيرُ ذى دَخَلٍ وفى فمى صارمٌ كالسيف مأثورُ

وهذا من أحسن ما قيل فى هذا المعنى ، وهو داخل فى باب تحسين ما يَقبُح وقد جمعتُ قطعةً من ذلك فى تأليفى للخزانة العالية الإمامية ، الموسوم بـ « قِطَع الرياض فى بِدَع الأغراض » . ومن ذلك قول بشار بن برد :

عَمِيتُ جنيناً ، والذكاء من العمى فجئتُ مُصيبَ الظن للعلم مَوئلاً
/وغاض صفاء العين للعقل رافداً بقلبٍ إذا ما ضيَّع الناسُ حصَّلا [٧ - ١]
وشِعرٍ كنَوْر الرَّوْض لامستُ نَظْمَه بقولٍ إذا ما أحزَنَ الشعرُ أسهلا

وقال آخر ، ويُروى لأبى العلاء ، والصحيح أنه لأبى الحسن الحُصْرِى :

وقالوا : قد عَميت ، فقلت : كلا وإنى اليومَ أبصَرُ من بصيرِ
سوادُ العين زار سوادَ قلبي ليجتمعا على فهم الأمـــورِ

وقال عبد الله بن سليمان القرطبي النحوى — المعروف بدَرودٍ ، ويقال دُرَيْوِد — وكان أعمى(١) :

تقول : مَن للعمى بالحُسْن ؟ قلت لها : كَفَى عن الله فى تصديقه الخَبَرْ

---

(١) ترجم له الحميدى فى جذوة المقتبس رقم ٥٥٢ ص ٢٤٣ — ٢٤٤ والزبيدى فى طبقات اللغويين والنحاة (بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٥٥) ص ٣٢٣ ، وقد ورد فى هذا الأخير أن الخليفة عبد الرحمن الناصر استأدبه لأبنائه ، وتوفى سنة ٣٢٤/ ٩٤٥ — ٩٤٦ .

القلب يدرك ما لا عين تدركهُ والحسن ما استحسنتْه النفسُ لا البصرُ
وما العيونُ التى تعمَى إذا نظرتْ بل القلوبُ التى يعمَى بها النظرُ

ومن جيد العذر — لولا شَوْبُه بالهُجْر — قول الآخر :

قالوا : العمى منظرٌ قبيحٌ قلت : بفقدى لهم يهونُ
تالله ما فى الأنام شىء تأسَى على فقده العيونُ

كأنه أخذه من قول سعيد بن المُسَيّب وقد نزل الماء فى عينيه ، فقيل له : « لو قَدَحْتَهُمَا » ، فقال : « وعلى من أفتحهما ؟ . . » . ومثل هذا قول المعرى ، وهو عندى من المنشَد :

أبا العـــلاء بنَ سليمانَا إن العمى أولاك إحسانَا
لو أبصرتْ عيناك هذا الورى لم ير إنسانُك إنسانَا

٤ — عبد الله بن الزبير ، أبو بكر وأبو خُبَيْب

غزا إفريقيَّةَ مع ابن أبى سَرْح فى خلافة عثمان . وهو الذى وَلِىَ قتلَ جِرْجِير[1] ملكها واحتز رأسه وجعله فى رمحه ، وكبَّر فانهزم الروم فى خبر طويل ذكره مصعب بن الزبير فى كتاب « قريش »[2] من تأليفه ، فوجه به ابنُ

(١) كذا ورد الاسم مضبوطاً بكسر الأول ، والشائع جُرجير بضم الجيم . وهو البطريق جريجوريوس الذى كان قد استبد بأمر إفريقية بعد موت الإمبراطور هرقل وقبيل فتح المسلمين للمغرب .

(٢) يريد أبا عبد الله المصعب بن عبد الله المصعب الزبيرى وكتابه « نسب قريش » (نشره ليڤى پروڤنسال ، سلسلة ذخائر العرب ، رقم ١١ — القاهرة ١٩٥١ وأعاد نشره فى صورة أكمل ومع فهارس أوفى الأستاذ عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٦٢) والخبر وارد فيه فى ص ص ٢٣٧ — ٢٣٩ .

أبى سرح / بشيراً إلى عثمان ، فقدم عليه ، فأخبره بفتح الله ونصره ، وخطب [٧ - ب] يومئذ بذلك فى مسجد المدينة على المنبر . قال مصعب : وبُشِّر عبدُ الله مقدمَه من إفْرِيقِيَّة بابنه خُبَيْب بن عبد الله ، وهو أكبر وَلده .

وقال ابن عبد الحَكم : « بعث عبدُ الله بن سعد بالفتح عُقْبَةَ بنَ نافع ، ويقال بل عبد الله بن الزبير ، وذلك أصح — فيقال إنه سار على راحلته إلى المدينة من إفْرِيقِيَّة فى عشرين ليلة »[١] . قال : « وقد قيل إن عبد الله بن سعد كان قد وجه مروانَ بن الحكم إلى عثمان من إفْرِيقِيَّة ، فلا أدرى أفى الفتح أم بعده ؛ والله أعلم »[٢] .

ثم وَلِىَ ابنُ الزبير الخلافة بالحجاز والعراق وأكثر الشام ، بعد موت معاوية ابن يزيد بن معاوية . وكان قد خرج من المدينة مع الحسين بن علىّ — إثر موت معاوية بن أبى سفيان ، ممتنعا من بيعة ابنه يزيد — وأقام يسلَّم عليه بالخلافة تسع سنين ، ثم قتله عبدُ الملك بن مروان على يد الحَجّاج سنة ثلاث وسبعين من الهجرة .

وحكى الزبير بن بَكّار فى كتاب « نسب قريش »[٣] له ، عن هشام بن

---

(١) انظر ابن عبد الحكم : «كتاب فتوح إفريقية والأندلس » طبعة جزئية من فتوح ابن عبد الحكم اقتصرت على فتح إفريقية والأندلس نشرها ألبير جاتو ALBERT GATEAU مع ترجمة فرنسية عنوانها : ***Conquète de l'Afrique du Nord et de l'Espagne*** وهى المجلد الحادى عشر من سلسلة Bibliothèque Arabe-Française التى تنشر فى الجزائر ، وهى طبعة جيدة ، تمتاز بتعليقات وشروح قيمة وفهارس دقيقة . والخبر المشار إليه وارد فيها فى ص ٤٨ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٥٠ .

(٣) المراد كتاب « جمهرة نسب قريش وأخبارها » لأبى عبد الله الزبير بن بكار (١٧٢ - ٢٥٦/٧٨٨ - ٨٧٠) وهو ابن أخى أبى عبد الله المصعب بن عبد الله الزبيرى (١٥٦ - ٢٣٦/٧٥٤ - ٨٥٦) صاحب كتاب « نسب قريش » الذى سبقت الإشارة إليه . وقد نشر =

عروة ، قال : كان أول ما أفصح به عمى عبدُ الله بنُ الزبير — وهو صبى — السيف ، وكان لا يضعه من فمه . فكان الزبير بن العوام إذا سمع ذلك منه يقول : أما والله ليكونن له منه يوم ويوم وأيام .

ومن شعره المشهور عنه :

وكم من عدوٍّ قد أراد مساءتى بغَيبٍ ، ولو لاقيتُه لتندَّما
كثير الحَنَا ، حتى إذا ما لقِيتُه أصرَّ على إثمٍ وإن كان أقسَما

وقال أيضا ، أنشده له أبو على الحسن بن رشيق فى كتاب « العمدة » من تأليفه ؛ قال غيره : ويُروى لعبد الله بن الزَّبِير (بفتح الزاى وكسر الباء)[1] :

لا أحسبُ الشرَّ جاراً لا يفارقنى ولا أَحُزُّ على ما فاتنى الوَدَجا
وما لقِيتُ من المكروه منزلةً إلا وثقت بأن ألقى لها فرَجا

ويُروى أن معاوية بن أبى سفيان كتب إليه :

رأيتُ كرامَ الناس إن كُفَّ عنهمُ بحلمٍ ، رأوْا فضلاً لمن قد تحلَّما
ولا سيما إن كان عفواً بقدرةٍ فذلك أحرى أن يَجِلَّ ويعظُما [٨ - ١]

= الأستاذ محمود محمد شاكر الجزء الأول من القسم الذى عثرنا عليه منه ؛ وهو نصف الكتاب تقريباً (القاهرة ١٩٦٢) محققاً تحقيقاً جديراً بكل تقدير وثناء .وقدم له بمقدمة وافية عن الزبير بن بكار وحياته ومؤلفاته ، وقارن بين كتابه فى أنساب قريش وكتاب عمه فى نفس الموضوع ، وقارن كذلك بينه وبين كتاب « جمهرة أنساب العرب » لأبى محمد على بن أحمد ابن حزم . ومن أسف أن القسم الذى ينقل عنه ابن الأبار هنا لم نعثر عليه بعد ،وهو الجزء الثانى عشر من الكتاب — بحسب تجزئة الأصل — وأول الجزء الثالث عشر ، وهو يتناول أخبار عبد الله ابن الزبير (راجع ص ٥ من الكتاب ، وهامش ١) . والمقصود هو عبد الله بن الزبير .

(١) واضح أن المراد هنا رجل آخر غير ابن الزبير ، وقد راجعت هذه الفقرة على أصلها فى « العمدة » لابن رشيق (طبعة محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٣٤) حـ ١ ص ٢٤ .

ولستُ بذى لؤمٍ فتعذر بالذى أتيت من الأخلاق ما كان ألأما
وإنى لأخشى[1] أن أنالك بالتى كرهت ، فيخزى الله من كان أظلما

فراجعه ابن الزبير :

ألا سَمِعَ الله الذى أنا عبْدُه وأخزى إلهُ الناس من كان أظلما
وأجْرا[2] على الله العظيم بجُرْمهِ وأسرعَهُ فى الموبقات تقحُّما
أغرَّكَ أن قالوا حليمٌ بقدرةٍ وليس بذى حلمٍ ولكن تَحَلَّما
وأقسمُ لولا بيعة لك لم أكن لأنقُضها ، لم تنج منى مسلَّما

ومما رويته من طريق ابن أبى الحسن بن صخر فى فوائده ، وقرأته على الحافظ أبى الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعى بإسناده إلى عبد الله بن المبارك ، قال : حدثنى يونسُ عن الزهرى ، قال : اجتمع مروان وابن الزبير عند عائشة رضى الله عنها ، قال : فذكر مروان بيتاً من شعر لبيد :

وما المرء إلا كالشهابِ وضوئِه يعود رماداً بعد إذ هو ساطعُ

فتعجب منـــه . قال ابن الزبير : « وما تعجُّبك ؟ لو شئتُ قلتُ ما هو أفضل منه :

ففوِّض إلى الله الأمورَ إذا اعْتَرَتْ فبالله ـ لا بالأقربين ـ تدافعُ »

قال مروان :

وداوِ ضميرَ القلْب بالبِرِّ والتُّقَى ولا يستوى قلبان : قاسٍ وخاشع

---

(١) فى الأصل : لا أخشى ، والصواب ما أثبتناه . وقد صوبه كذلك على هذا النحو ماركوس مولر ، ص ١٨٧ .

(٢) فى الأصل : وأجرى ، والصواب ما أثبتناه ، والمراد أجراً .

وقال ابن الزبير :

ولا يستوى عبدان : عبد مصلَّمٌ عُتُـــلٌّ لأرحام الأقارب قاطع

قال مروان :

وعبدٌ تجافَى جنبُه عن فراشِهِ يبيت يناجي ربَّه وهو راكع

قال ابن الزبير :

وللخير أهل يُعرَفون بَهَدِيهم إذا جمعتْهم فى الخطوب المجامع

قال مروان :

وللشر أهل يُعرفون بشكلهم تشير إليهم بالفجور الأصابع

فسكت ابن الزبير ، فقالت له عائشة : «ما سمعتُ مجادلة قط أحسن من هذه ، ولـكن لمروان إرث فى الشعر ليس لك » .

/٥ — مروان بن الحكم ، أبو عبد الملك [٨ – ب]

غزا إفرِيقِيَّة مع ابن أبى سرح ، ووجَّهه إلى عثمان رضى الله عنه ، على ما ذكره ابنُ عبد الحـكم حسبما تقدم . وكان ابن أبى سرح قد كتب إلى عثمان يستأذنه فى غزو إفرِيقِيَّة ، فندب عثمانُ الناس بعد المشورة فى ذلك . فلما اجتمعوا أمَّر عليهم الحٰرث بن الحـكم(١) أخا مروان ، إلى أن يقدموا على عبد الله بن سعد بن أبى سرح بمصر فيـكون الأمر إليه .

(١) عند النويرى ، نهاية الأرب ، الجزء الخاص بالمغرب ، مخطوط رقم ٢٢ بدار الكتب بالقاهرة ، ورقة ٦٣ ا : الحارث .

ومن شعر مروان :

اعمل وأنت من الدنيا على حذرٍ واعلم بأنك بعد الموت مبعوثُ
واعلم بأنك ما[1] قَدمت من عملٍ مُحصًى عليك ، وما خَلَّفْتَ موروثُ

وقد أوردت ما دار بينه وبين عبد الله بن الزبير قبل هذا ؛ وهو القائل أيضا بين يدى خلافته عند موت معاوية بن يزيد بن معاوية واضطراب الأمور بالشام :

إنى أرى فتنةً تغلى مراجلُها والمُلك بعد أبى لَيلى لمن غَلبا

وذكر له الزبير بن بَكّار وغيره رجزاً فى قتل الحسين بن على حين قُدم برأسه على المدينة ، تركتُ ذكره ؛ وكان أخوه عبد الرحمن بن الحكم من فحول الشعراء .

٦ — ابنه عبد الملك بن مروان ، أبو الوليد

غزا إفريقيَّة مع معاوية بن حُدَيج سنة أربع وثلاثين فى آخر خلافة عثمان ، وبعثه معاوية هذا إلى مدينة يقال لها « جَلُولاَ »[2] فى ألف رجل . « فحاصرها

---

(١) فى الأصل : قد ، وصوبناه للمعنى .

(٢) جلولا أوجلولاء ، مدينة على بعد ٢٤ ميلا عن القيروان . وكانت مدينة كبيرة فيها حصن بيزنطى قديم ، أصل اسمها Cululis . وقد وصفها البكرى بأنها كانت مدينة غنية كثيرة الأشجار والثمار ، وبها قصب السكر (وصف إفريقية ، طبعة دى سلان ، الجزائر ١٩١٠) ص ٣١ و٣٣ و٥٨ . وقد ذكرها الإدريسى باسم جَلُولَه ، ص ٢٠ .

عبد الملك أياماً فلم يصنع شيئاً ، فانصرف راجعاً . فلم يسر إلا يسيراً حتى رأى في ساقة الناس غباراً شديداً ، فظن أن العدو قد طلبهم ، فكرّ بجماعة من الناس لذلك ، وبقى من بقى على مصافّهم ، [وتسرع سرعان الناس] ، فإذا مدينة جَلولاَ قد وقع حائطها ، فدخلها المسلمون وغنموا ما فيها ، [وانصرف عبد الملك إلى معاوية بن حديج] »[1] .

ولعبد الملك في تمنيه الخلافة وإجابة دعائه بذلك خبر غريب يدخل في باب الأماني الصادقة ، وقد رويته عن الحافظ أبي الربيع بن سالم بقراءتي عليه من طريق أبي عليّ بن سُكَّرة الصدفي بإسناده إلى الشَّعْبي ، قال : لقد رأيت عجباً : كنا بفناء الكعبة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ومصعب بن الزبير[2] وعبد الملك بن مروان . فقال القوم بعد أن فرغوا من حديثهم : ليقم كل رجل
منكم فليأخذ بالركن اليماني/ويسأل الله حاجته ، فإنه يُعطَى من سَعة ؛ قم يا عبد الله [٩ – ١]
ابن الزبير فإنك أول مولود وُلد في الهجرة . فقام فأخذ بالركن اليماني ثم قال : اللهم إنك عظيم تُرجى لكل عظيم ، أسألك بحرمة وجهك وحرمة عرشك وحرمة نبيك ألا تميتني من الدنيا حتى توليَني الحجاز ويسلَّم عليّ بالخلافة ؛ وجاء حتى جلس . فقالوا : قم يا مصعب بن الزبير ، فقام حتى أخذ بالركن اليماني ثم قال : اللهم إنك رب كل شيء وإليك يصير كل شيء ، أسألك بقدرتك على كل شيء ألا تميتني من الدنيا حتى توليني العراق وتزوجني سُكَيْنة بنت الحسين ؛ وجاء حتى جلس . وقالوا : قم يا عبد الملك بن مروان ، فقام وأخذ بالركن اليماني فقال : اللهم رب السماوات السبع ورب الأرضين ذات النَّبْت بعد القَفْر ، أسألك بما سألك

---

(١) نقل ابن الأبار هذه الفقرة عن فتوح ابن عبد الحكم (طبعة توري ، ص ٩٣) وقد راجعتها على أصلها هناك وأكملت نقصها منه .

(٢) ورد في الهامش مقابل هذا السطر : ومصعب بن الزبير ، مع إشارة يفهم منها أنه هذا الاسم ينبغي أن يدرج في المتن .

obeikandi.com

عبادك المطيعون لأمرك ، وأسألك بحرمة وجهك ، وأسألك بحقك على جميع خلقك ، وبحق الطائفين حول بيتك ، ألا تميتنى من الدنيا حتى تولينى مشرق الأرض ومغربها ، ولا ينازعنى أحد إلا أُتيت برأسه ، ثم جاء حتى جلس . ثم قالوا : قم يا عبد الله بن عمر ، فقام حتى أخذ بالركن اليمانى ثم قال : اللهم إنك رحمان رحيم ، أسألك برحمتك التى سَبقتْ غضبَك ، وأسألك بقدرتك على جميع خلقك ألا تميتنى من الدنيا حتى توجبَ لى الجنة . قال الشعبى : فما ذهبت عيناى من الدنيا حتى رأيت كل واحد منهم أُعطى ما سأل ، وبُشر عبد الله بالجنة ، ورؤيت له . ومن شعر عبد الملك ، وقد هم بقتل بعض أهله ثم صفح عنه :

هممتُ بنفسى هَمَّةً لو فعلتُها ... لكان كثيراً بعدَها ما ألومُها
ولكننى من أسرةٍ عَبْشَمِيَّةٍ ... إذا هى هَمَّتْ أدركتْها حُلومُها

ويُروى أنه لما بلغه إسراف الحجاج بن يوسف فى القتل ، وتبذيره الأموال بعد ظهوره علَى عبد الرحمن بن محمد الأشعث ، كتب إليه ينهاه ويتوعده ، وكتب فى أسفل كتابه :

إذا أنت لم تترك أموراً كرهتها ... وتطلبْ رضاىَ بالذى أنت طالبُهْ
وتخشَ الذى لم يخش مثلك لم تكن ... كذى الدَّرِّ رَدَّ الدَّرَّ فى الضرع حالبُهْ
/فإن ترَ مِنِّى وثبــةً أمويةً ... فهذا وهذا — كل ذا — أنا صاحبُه [٩ - ب]
وإن ترَ منى غفلة قرشــيةً ... فيارُبما قد غُصَّ بالماء شاربُه
فلا تأمَنَنِّى والحوادثُ جَمَّــةٌ ... فإنك مَجْزِىٌّ بما أنتَ كاسبُه
وإنى لأُغضِى جفنَ عينِى على القذى ... وأزْوَرُّ بالأمر الذى أنا راكبُه
وأُمْلِى لذى الذنب العظيم كأننى ... أخو غفلة عنــه وقد جُبَّ غاربُه
فإن آبَ لم أعجل عليه ، وإن أبَى ... وثبتُ عليه وثبــةً لا أراقبُه

فجاوبه الحجاج برسالة وكتب معها :

إذا أنا لم أطلبْ رضاكَ وأتَّقِي ... أذاكَ ، فيَوْمى لا تُوارَى كواكبُهْ
وما لامرئٍّ يعصَى الخليفةَ جُنَّةٌ ... تقيه منَ الأمرِ الذى هو راكبُه
أسالمُ مَن سالمتَ من ذى مَوَدةٍ ... ومَن لم تُسالمْه فإنى مُحاربُه
إذا قارف الحجاجُ فيك خطيئةً ... فقامتْ عليه بالصِّياح نوادبُه
وإن أنا لم أُدْنِ النصيحَ لنُصحِه ... وأُقْصِ الذى دبَّتْ علىَّ عقاربُه
وأُعْطِ المواسى [... ... ...] ... ترد الذى ضاقت علىَّ مذاهبُه
فمن يتقِ بُوسى ويرْعى مودتى ... ويخشى [الردى] والدهر جم عجائبُه
فأسرى إليكَ اليومَ : ما قُلتَ قُلتُه ... وما لم تَقُلْهُ لم أقلْ ما يقاربُه
وبهما تُرِدْ منى فإنى أريدُهُ ... وما لم تُرِدْ منى فإنى مجانبُه
[... ... ...] بى على الرضا ... مدى الدهر حتى يرجعَ الدَّرَّ حالبُه

والذى أوردته من أبيات فمنقول عن إثبات ، ومجموع من تصنيفات أشتات ؛ وما كان مقولا عليهم ومنحولا إليهم ، فأنا برىء من عهدته .

المائة الثانية

٧ — أبو جعفر المنصور ، عبد الله بن محمد بن على ابن عبد الله بن العباس

دخل إفريقيَّة فى أيام بنى أمية — وهو إذ ذاك سوقة — فراراً منهم ، وملَكها فى خلافته بعد أخيه أبى العباس السفاح ، وخُلع فيها وقتاً ، ثم عادت إليه وولاّها الأغلبَ بن سالم التميمى ، جَدَّ الأغالبة المتداولين مُلكها إلى أن غَلبهم عليها عُبيد الله الشيعى فانقرضوا به .

وكان يقال لأبى جعفر فى صغره « مِقْلاص » ، لُقب بذلك تشبيها بالمقلاص من الإبل ، وهى الناقة التى تسمن فى الصيف وتهزل فى الشتاء ، وكذلك كان أبو جعفر . حكى ذلك أبو الوليد الوَقَشِى ، قال : وهو مقلوب العادة . وليس فى خلفاء بنى العباس أعلم من أبى جعفر المنصور وعبد الله المأمون ، ثم بعدهما الرشيد والواثق ، ومن متأخريهم المسترشد بن المستظهر[1] ؛ وأشعرهم أبو العباس الراضى بن المقتدر .

---

(١) فى الأصل : المسترشد من المستظهر ، والصواب ما أثبتناه . وهو أبو منصور الفضل المسترشد بالله بن أبى العباس أحمد المستظهر بالله ، وهو التاسع والعشرون من خلفاء بنى العباس فى بغداد (٥١٢ — ٥٢٩ / ١١١٨ — ١١٣٥) .

وأبو جعفر معدود فى الـكَمَلة من الملوك ، وكان يفرط فى دعواه الاطلاع[1] ، ويقرِّظ بتقريظ نفسه الأسماع ، فمن قوله فى بعض خطبه : « الملوك أربعة : معاوية وكفاه زِيادُه ، وعبد الملك وكفاه حَجّاجُه ، وهشام وكفاه مواليه ، وأنا ولا كافِىَ لى ! » . ولما عزم على الفتك بأبى مسلم صاحب دولتهم والقائم بدعوتهم — وقد حُذِّر من عاقبة ذلك — كتب إليه عيسى بن موسى بن على ابن عبد الله بن العباس مشيراً عليه بالأناة ، وكان قد شاوره فيه :

إذا كنتَ ذا رأيٍ فـكن ذا تَدَبُّرٍ ... فإن فسادَ الرأى أن يتَعجَّلا

فقال المنصور يجيبه :

إذا كنت ذا رأيٍ فـكن ذا عزيمةٍ ... فإن فساد الرأى أن يُتَرَدَّدا

ولا تهمل الأعداء يوماً بقدرةٍ ... وبادرهم أن يملـكوا مثلها غدا

وينظر إلى هذا قول عبد الله بن المعتز :

وإنْ فرصةٌ أمكنتْ فى العدا ... فلا تَبْدَ فِعلَكَ إلا بها

[١٠ – ب] / فإن لم تَلِجْ بابَها مسرعا ... أتاك عدوُّك من بابها

وإياكَ من ندمٍ بعدَها ... وتأميل أخرى ، وأنّى بها ؟

وقال المنصور :

تَقَسَّمَنى أمران لم أفتتحهما ... بحَزْمٍ ولم تعرك قُوَاىَ الـكراكر

وما ساور الأحشاء مثلُ دفينةٍ ... من الهم رَدَّتها عليك المصادر

وقد علمتْ أبناء عدنانَ أننى ... لدى ما عرا مِقدامةٌ متجاسر

(١) الأصل : الاضطلاع .

وقال أيضا يخاطب محمداً وإبراهيم ابنى عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، حين خرجا عليه بالمدينة والبصرة :

بنى عمِّنا ، لا نَصْرَ عندكم لنا ولكنكمْ فينا سيوفٌ قواطعُ
فلولا دفاعى عنكمْ إذ عجزتمُ وبالله أحمى عنكمُ وأدافع
لكُنتم ذُنَابَى آلِ مروانَ مثلما عَهِدناكمُ ، واللهُ معطٍ ومانع

٨ — عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان

الداخل إلى الأندلس ، ويقال له « صقر قريش » — سماه أبو جعفر المنصور بذلك — وكنيته أبو المطَرِّف ، وهو الأشهر فى كنيته ، وقيل أبو زيد ، وقيل أبو سليمان .

هرب فى أول دولة بنى العباس إلى المغرب ، وتردد بنواحى إفريقيَّة ، وأقام دهراً فى أخواله « نَفْزَة » من قبائل البربر ، وكانت أمه منهم « راح » ، ثم لحق بالأندلس فى غرة شهر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين ومائة ، وهزم أميرَها يوسف ابنَ عبد الرحمن الفِهْرِىَّ فى يوم الخميس لتسع خلون من ذى الحجة من هذه السنة ، واستوسقت له الخلافة ليوم[1] آخر يومَ الجمعةِ يومَ الأضحى وهو ابن ست وعشرين سنة .

ودعا لنفسه عند استغلاظ أمره واستيلائه على دار الإمارة قُرْطُبَة ، ويقال إنه أقام أشهراً دون السَّنة يدعو لأبى جعفر المنصور ، متقيِّلا فى ذلك يوسفَ

(١) أى أن الأمر استقر له فى مدى يوم واحد بعد انتصاره على يوسف الفهرى: انتصر عليه يوم الخميس ٩ ذى الحجة ١٣٨ واستقر له الأمر فى نهاية اليوم التالى وهو يوم الجمعة ١٠ ذى الحجة ١٣٨ .

١١ - ا] الفِهْرِىّ الوالى قبله ، إلى أن أفرد نفسَه / بالدعاء ؛ ويقال إن عبد الملك بن عمر ابن مروان بن الحَكَم[1] أشار عليه بذلك عند خلوصه إليه فقبله ؛ إلا أنه لم يَعْدُ اسمَ الإمارة ، وسلك الأمراء من وَلَدِه سُنته فى ذلك إلى عهد عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله ، فهو الذى تَسَمَّى بالخلافة بعد سنين من سلطانه ، ودُعِى بأمير المؤمنين لما استفحل أمرُه واستبان له ضعف ولد العباس وانتثار سلطانهم بالمشرق ، وذلك فى آخر خلافة المقتدر بالله جعفر بن أحمد المعتضد منهم . ذكر ذلك أبو مروان حيّان بن خلف بن حيّان صاحب « تاريخ الأندلس » .

ومن شعر عبد الرحمن بن معاوية يتشوق معاهده بالشام ، أنشده الحُمَيْدِىّ فى تاريخه :

أيها الراكبُ الميممُ أرضى أقْرِ من بَعضىَ السلامَ لبعضِ[2]
إن جسمى كما علمتَ بأرضٍ وفؤادى ومالكيه بأرضِ
قُدِّر البينُ بيننا فافترقْنا وطوى البينُ عن جفونىَ غُمضى
قد قضى الله بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضى

وقال أيضاً فى حَيْوَة بن مُلامِسٍ الحَضرمى[3] من جند حمص النازلين إشبيلية ، وكانت له منه منزلة لطيفة فى أول ملكه :

---

(١) راجع : المصعب الزبيرى ، نسب قريش ، ص ١٦١ .
وابن حزم ، جمهرة أنساب قريش (بتحقيق ليڤى پروڤنسال ، القاهرة ١٩٤٨) ص ٨٠ .

(٢) الأصل : إلى بعض ، والتصويب من « المعجب » لعبد الواحد المراكشى ، طبعة دوزى ، ص ١٢ .

(٣) كذا ورد الاسم فى « البيان المغرب » أيضا (طبعة ليڤى پروڤنسال وكولان ، لايدن ١٩٥١) ٢/٥١ . ولم يظل حيوة على ولائه لعبد الرحمن ، إذ أنه ثار عليه حوالى ١٤٥ / ٧٦٢ وتغلب على إشبيلية واستجَّة وأكثر الغرب ، فخرج إليه عبدالرحمن وقاتله قتالا عنيفاً بضعة أيام . وقد كاد عبد الرحمن أن ينهزم أول الأمر ، ولكنه ثبت حتى ملك ناصية المعركة فانهزم حيوة ومن معه من أهل اليمن ، وهرب إلى ناحية فِرَّيش شمالى قرطبة ، ومن هناك كتب إلى عبد الرحمن =

فلا خير فى الدنيا ولا فى نعيمها إذا غاب عنها حَيْوَةُ بنُ مُلامِسِ
أخو السيف ، قارى الضيف ، حقًّا يراها عليه ، ونَافِى الضيمِ عن كلِّ بائسِ (١)

وحكى عيسى بن أحمد الرازى أن عبد الرحمن بن معاوية — أولَ نزوله مُنْيَةَ الرُّصَافة بقُرْطُبَة واتخاذه لها — نظر إلى نخلة مفردة ، فهاجت شجنه وتذكر بلد المشرق فقال بديهاً :

تَبَدَّتْ لنـــا وَسْطَ الرُّصَافةِ نخلةٌ تناءتْ بأرض الغرب عن بلد النخلِ
فقلتُ : شَبيهى فى التغرُّب والنَّوى وطولِ التنائى عن بَنِيَّ وعن أهلى
نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ فمثلُكِ فى الإقصاء والمُنتَأى مِثلى
سَقَتْكِ غوادى المُزْنِ من صَوْبِها الذى يَسُحُّ ويستمرى السِّمَاكَيْنِ بالوَبْلِ

/ وقال أيضاً فيها : [١١ - ب]

يا نخلُ أنتِ غريبةٌ مثلى فى الغرب نائية عن الأصلِ
فابكى ، وهل تبكى مُكَبْكَبَةٌ عجماء لم تطبع على خَبْـــلِ ؟
لو أنها تبكى ، إذاً لبكت ماء الفُرات ومَنْبِتَ النخل
لـكنها وذَهَلَتْ ، وأذهلنى بُغْضى بنى العباس عن أهلى

وقد قيل إن الأبيات الأربعة الأول لعبد الملك بن بشر بن عبد الملك بن بشر بن مروان بن الحكم ، قالها عند دخوله الأندلس فراراً من بنى العباس فى صدر أيام الأمير عبد الرحمن بن معاوية . وقيل فى الأبيات الأخيرة إنها لعبد الملك

= يسأله العفو عنه . وثورة حيوة بن ملامس حلقة من صراع عبد الرحمن الداخل مع اليمنيين الذين ظنوا بعد وصوله إلى الإمارة بفضلهم (مع البربر) أن الدولة ستكون لهم ، وساءهم أن وجدوا عبد الرحمن يريد أن ينتهج السياسة التى تتفق ومصالح العرش الذى أقامه ، سياسة إنصاف ومساواة بين السكان جميعاً . وقد انتهت ثورات اليمنيين بعبد الرحمن إلى الانصراف عنهم جملة ، والميل إلى الشامية وتفضيلهم .

(١) كذا فى الأصل ، وقد قرأها دوزى ، ص ٣٤ : يائس .

ابن عمر بن مروان بن الحكم ، وقد اجتاز فى قصده قرطبة ، حضرة الأمير عبد الرحمن بن معاوية — [على] ما حكى الحافظ — بمدينة إشبيلية ، فرأى فى موضع منها — يعرف بـ « النخيل » إلى اليوم — نخلة مفردة ، فاحقته(١) رقة عند النظر إليها ، وقال بديهاً الأبيات المذكورة .

ومما يرُد هذا القول ويقوى نسبتَها — أعنى الأبيات الأخيرة — لعبد الرحمن ابن معاوية ، ما حكى الحافظ أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال فى تاريخه ، وقرأته على القاضى أبى الخطاب أحمد بن محمد بن واجب القيسى بمدينة بلنسية عنه قراءةً عليه بحضرة قرطبة ، قال : قال أبو بكر محمد بن موسى بن فتح ، يُعرف بابن الغَرّاب(٢) : دخلت يوماً على أبى عثمان بن القزّاز وهو يعلِّق فقلت له : رأيت الساعة فى توجهى إليك القاضى والوزراءَ والحكامَ والمدولَ قد نهضوا بجمعهم إلى حيازة(٣) الجنة المعروفة بـ « رَبَنَالِش »(٤) ، وهبها هشام للمظفر بن أبى عامر . قال : فقال لى ابن القزّاز : إن هشاماً لضعيف ، هذه الجنة المذكورة

---

(١) العبارة ابتداء من « حضرة الأمير » إلى هنا وردت فى الهامش بخط مختلف مع إشارة فى المتن إلى موضعها حيث جعلناها . وعند كلمة « الحافظ » كتب نفس الكاتب كلمة «صح» دون أن يعين اسم الحافظ الذى كتب عنده هذا اللفظ ؛ ويغلب على ظنى أن المراد هنا أبو يوسف عمر بن عبد البر .

(٢) كذا فى الأصل ، وقد جعلها دوزى ، ص ٣٥ : القَرّاب ، والصحيح ما أثبتناه .

(٣) الأصل جيازة ، وقد قرأها دوزى حيازة وفسرها بالخندق أو الفصيل **(une digue)** اعتماداً على ماذكره فَيَرْز **Weijers** فى شروحه على القطع التى نشرها من كلام ابن خاقان بعنوان *Loci Ibn Khacanis* ص ٢٣ وتعليق رقم ٦٦ ص ٨٣ .

(٤) الأصل : رُبْنالِش ، وقرأها دوزى رنُبالش والصحيح ربَنالِش وهى **Rabanales** ، ولا زال هذا الاسم يطلق على منطقة حدائق على خمسة كيلومترات شمال شرق قرطبة .

cf : LÉVI PROVENÇAL, *L'Espagne musulmane au X⁰ siècle*, (Paris, 1932), p. 225, note 3.

وقد روى نفس الخبر ابن بشكوال فى الصلة فى ترجمة سعيد بن عثمان بن أبى سعيد بن محمد أبن سعيد بن عبد الله بن يوسف البربرى اللغوى الذى يعرف بابن القزاز المذكور هنا (رقم ٤٦٢ ص ٢٠٦ — ٢٠٧) .

obeikandi.com

هى أول أصل اتخذه عبد الرحمن بن معاوية ؛ وكان فيها نخلة أدركتُها بسنٍّ ، ومنها تولدت كل نخلة بالأندلس . قال : وفى ذلك يقول عبد الرحمن بن معاوية ، وقد تنزه إليها ، فرأى تلك النخلة فحَنّ : « يا نخل أنت غريبة مثلى » ، وذكر الأبيات إلى آخرها .

وحكى أبو عمر أحمد بن محمد بن فرج صاحب « كتاب الحدائق » المؤلَّف للحَكَم المستنصر بالله من أشعار الأندلسيين ، قال : بلغنى أن بعض الوفود من قُريش كتب إلى الإمام عبد الرحمن بن معاوية — رحمه الله — يستعظم حقه عليه بالرحم ويستقل حظه منه بالمستطمع(١) ، فوقَّع فى ظهر كتابه :

/ شتان(٢) من قام ذا امتعاضٍ منتضِيَ الشفرتين نَصْلاَ [١٢ - ١]
فجاب قفراً ، وشق بحراً مُسامياً لجَّـةً ومَحْلا
فشاد مجداً وبَزّ مُلكاً(٣) ومِنبراً للخطاب فصلا(٤)
وجَنَّد الجندَ حين أوْدى ومصَّر المِصرَ حين أخلى(٥)
ثم دعا أهـله جميعاً(٦) حيث انتأوْا ، أنْ : هلمّ أهلا(٧)

---

(١) كذا فى الأصل . وقد قرأها دوزى (ص ٣٥) بالمستطيع ، وهى قراءة أركّ مما فى الأصل . وفى نفس المناسبة يقول ابن عذارى : «ومن شعره البديع الرائق ، ماكتب به إلى بعض من طرأ عليه من قريش ، وكان قد استقل جرايته (فى نسخة : جزايته) واستطال بقرابته ، وسأله الزيادة له والتوسعة ، فكتب إليه بهذه الأبيات . . » . البيان المغرب ، ٥٩/٢ .

(٢) قرأها دوزى هنا : سيان (ص ٣٥) وكذلك قرأ ليڤى پروڤنسال وكولان . انظر البيان المغرب : ٥٩/٢ .

(٣) ورد هذا الشطر فى صور شتى . فى نفح الطيب : دبر ملكا وشاد عزا .
وعند ابن عذارى (٢ / ٥٩) : فبز ملكا وشاد عزا .
وفى مخطوطة أخرى من البيان : فشد ملكا وشاد عزا .

(٤) عند ابن عذارى (٢ / ٥٩) : وناقروا للخطاب فصلا .

(٥) عند ابن عذارى (٢ / ٥٩) : وأجلا .

(٦) فى نفح الطيب : ثم دعا أهله إليه .

(٧) الأصل : انتووْا ، وكذلك عند ابن عذارى .

فجاء(١) هذا طريدَ جوعٍ شريدَ سيفٍ أباد قتلا
فنال أمناً ، ونال شِبَعاً وحاز مالاً ، وضمّ شملا
ألم يكن حقٌ ذا على ذا أعظمَ من منعمٍ ومولَى ؟

وبعض هذا الشعر عن ابن حيّان ، وأوله عنده :

شتان من قام ذا امتعاضٍ فشال ما قلّ(٢) واضمحلاّ
ومن غـدا مُصْلِتاً لعزمٍ مُجَرِّداً للعِـداة نصلا
فجاب قفراً ... البيت .

وبعده :

* فبزَّ مُلكاً وشاد عزًّا *

إلا أن ابن حيّان ذكر عن معاوية بن هشام الشَّبِينسِيِّ(٣) ، أن جُلساء عبد الرحمن القادمين عليه من فَلِّ(٤) أهله بالشام ، حدثوه يوماً ما كان من

(١) الأصل : فجاد .

(٢) الأصل : قال ، وقد صوبه دوزى كما أثبتناه فى المتن ، وهو أصح .

(٣) هو معاوية بن محمد بن هشام بن الوليد ابن الأمير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية القرشى المروانى ، من أهل قرطبة ، يكنى أبا عبد الرحمن ويعرف بابن الشِّبَّانِسِيَّة ، من جلة الفقهاء والعلماء على أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط ، توفى سنة ٢٩٨ / ٩١٠ — ٩١١ (ابن الأبار ، التكلة ، رقم ١٠٧٧ ص ٣٧٩) . ويعرف أيضاً بالشَّبَّانِسِيِّ ، وهى نسبة حملها نفر من سلالة هشام الرِّضا ثانى أمراء بنى أمية فى الأندلس ، أول من نعرفه منهم معاوية هذا ثم ابن أخيه معاوية بن هشام بن محمد بن هشام ، وهو مؤرخ ومؤلف معروف ينسب إليه كتاب فى تاريخ دولة بنى مروان فى الأندلس وكتاب فى نسب العلوية وغيرهم من قريش سماه بـ «التاج السنى فى نسب آل على» (انظر التكلة لابن الأبار ، رقم ١٠٧٨) . وقد ذكر ابن حزم فى « الطوق » من أبناء هذا البيت أبا محمد قاسم بن محمد القرشى المعروف بالشبانسى . وقد ذهب سانشيث ألبورنوث إلى أن الشبانسى معرب عن sapientia أى العلم ، ولكن الغالب أنه نسبة إلى موضع يسمى شَبَانِس ، وواضح أن الربط بين الشبانسى والشبانسية ولفظ سابِيِنْتْيا مفتعل .

(٤) الأصل : جل ، وقد قرأها دوزى : من جوالى أهله (ص ٣٦) .

الغَمْرَ بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ابن عمه أيامَ محنتهم ، وكلامه للعباس السَّاطى به — ونَسَب ذلك إلى عبد الله بن على ؛ وفى « الأوراق » للصولى أن السفاح عبد الله بن محمد بن على تولى قتل الغَمْر ، وقد فخر فى مجلسه بمناقب قومه — وكَثَّر القوم فى وصف ذلك وعَجُّوا به ، فكأن الأمير عبد الرحمن احتقر ذلك فى جنب ما كان منه هو فى الذهاب بنفسه لاقتطاع قطعة من مملكة الإسلام عن عَدُوِّه ، وقام من مجلسه فصاغ هذه الأبيات بديهةً .

قال ابن الفرج(١) : وأتاه فى بعض غزواته آت ممن كان يعرف كلفه بالصيد ، فأخبره عن غرانيق واقعة(٢) فى جانب من مضطرَب العسكر وحرَّكه إلى اصطيادها ، فقال :

/ دعنى وصيد وُقَّـعِ الغرانقِ فإن هَمِّى فى اصطياد المارقِ [١٢ – ب]
فى نفقٍ إن كان أو فى حالقِ إذا التظتْ لوافحُ الضوائقِ
كان لِفَاعى(٣) ظلَّ بندٍ خافقِ غَنِيتُ عن روضٍ وقصرٍ شاهقِ

(١) المراد ابن فرج الجيانى صاحب «كتاب الحدائق » وهو أبوعمر أحمد بن محمد بن فرج الجيانى من أهل جيان ونزيل قرطبة ، وكان من شعراء عصر الحكم المستنصر ، وكان أخواه سعيد وعبد الله أيضاً شاعرين . ولا نعرف عن حياته إلا ماذكره ابن خاقان فى المطمح (القاهرة ١٣٢٥) ص ٨٦ من أنه كان عنيف الخلق شديد الزهو بنفسه خليعاً ، وقد قربه الحكم المستنصر ثم بدرت منه بادرة دفعت الحكم إلى إيداعه السجن فظل فيه إلى أن مات . وقد ألف ابن فرج الجيانى كتابه معارضاً لكتاب الزهرة لمحمد بن داوود الأصفهانى وإظهاراً لفضل أهل الأندلس على المشارقة .

انظر : الضبى ، بغية ، رقم ٣٣١ . المقرى ، نفح الطيب (طبعة دوزى وكريل ورايت ودوجا) ٢/٢٩٦ و٤٥٢ .

cf : ELIAS TERÉS, *Ibn Faray de Jaén y su Kitāb al-Ḥadā'iq*. Al-Andalus, vol. XI (1946) fasc. 1, pp. 131-157.

(٢) قرأ دوزى : واقفة .

(٣) اللفاع والِملفعة ما تُلُفِّع به من رداء أولحاف أوقناع ، قال الأزهرى : يجلل به الجسد كله كساءً كان أوغيره (اللسان : ١٠/١٩٦) .

obeikandl.com

بالقفرِ والإيطانِ بالسرادقِ فقل لمن نام على النمارق :
إن العلا شُدَّتْ بهمٍّ طارقِ فاركبْ إليها ثَبَجَ المضائق
أوْلا ، فأنت أرذل الخلائقِ

٩ — ابنه هشام بن عبد الرحمن بن معاوية

وَلِيَ الخلافة بالأندلس بعد أبيه يوم الأحد غرة جمادى الأولى من سنة إحدى وسبعين ومائة . وكانت وفاة أبيه وهو بمَارِدَة يوم الثلاثاء لست بقين من ربيع الآخر ، وبقرطبة وُلد له هشام هذا لأربع خلون من شوال سنة تسع وثلاثين ومائة ؛ ويعرف بـ « الرِّضا » لعدله وفضله ، ويكنى « أبا الوليد » . واستوزره أبوه عبدُ الرحمن وأخاه كبيرَه سليمان المولودَ بالشام تنويهاً بمحالهما ، وأخذهما بالركوب إلى القصر ومشاهدة مجالس مشورته . وكانا يركبان متداولين ومتناوبين لا يجتمعان : فإذا كان يوم هشام ، تأهب حاضرو المجلس من كبار أهل المملكة [... ...][1] والإفاضة فى الحديث إلى إنشاد شعر أو ضرب مَثَلٍ أو ذكر يوم من أيام العرب أو ذكر حرب أو اجتلاب حيلة أو حكاية تدبير أو إحماد سيرة ؛ وإذا كان يوم سليمان خلا من ذلك كله ، وانبسط الحاضرون فى غث الأحاديث وأخذوا فى الدعابة .

ويروى أن رجلا يعرف بالهوّارى دخل على هشام فى حياة أبيه عبد الرحمن ابن معاوية — وهو مرشح للخلافة — فقال له إن فلاناً مات عن ضيعة تعود بكذا وكذا من الغلة ، وأنها تباع فى دَيْن أو عن وصية ، وهى ناعمة مثمرة وطيبة الأرض مخصبة ، وحضه على اشترائها . فقال له : « أنا أريد أمراً إن بلغتُه

(١) أسقط الناسخ هنا شيئاً ولم يترك بياضاً .

غَنِيتُ عنها ، وإن قُطع بى دونه خسرتُها ؛ ولَاصطناع رجل أحب إلىّ من اكتساب ضيعة » . فقال له الهوّارى : / فاصطنِعنى بها تجد أكرم مصطنع » . [١٢ – ١]
فأمر بابتياعها[1] ، فأشار بعض من حضر إلى أن الاستعداد بالمال أعون على درك الآمال ، فأطرق عنه ثم قال :

البذلُ – لا الجمعُ – فطرةُ الكرمِ ❊ فلا تُرِدْ بىَ ما لم تُرد شِيمَى
ما أنا من ضيعةٍ وإن نَعُمَتْ ؟ ❊ حسبىَ اصطناعُ الأحرار بالنِّعَمِ
مُلكُ الورى ، والعبادِ قاطبةً ❊ – لا مِلكُ بعضِ الضياع – من هِممى[2]
تفيض كفى فى السلم بَحْرَ ندًى ❊ وفى سجال الحروب بحرَ دمِ
تزلُّ عن راحتى البدور ، وما ❊ تمسك غير الحسام والقلم

لم أجد لهذا الملك الأمجد — مع نشدان ضالة كلامه — غير هذا المُنشَد . وإن كان قليلا فكفى دليلا على شرَفِ الحِباء وشرف الحوباء ، حتى كأن أعشى همْدان سمع بطَوْله فاعتمده بقوله :

رأيتُك أمسِ خيرَ بنى لُؤَىّ ❊ وأنت اليومَ خيرٌ منك أمسِ
وأنت غداً تَزيد الخيرَ ضِعْفاً ❊ كذاك تَزيدُ سادةُ عبدِ شمسِ

١٠ — ابنه الحكم بن هشام المعروف بالرَّبَضى ، أبو العاصى

وَلِىَ بعد أبيه يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من صفر سنة ثمانين ومائة . وكان شجاعاً باسلاً ، أديباً مفتنًّا ، خطيباً مفوّهاً ، وشاعراً مجوِّداً ، تُحذر صولاتُه ، وتُستندر أبياتُه .

---

(١) السياق يقتضى هنا أن تقرأ : بابتياعها له .

(٢) الأصل : هم .

وهو الذى أوقع بأهل « الرَّبَضِ » فنُسب إليه ، وأمر بهدمه وتعطيله ، وصيَّر ذلك وصيةً فيمن خلفه وعهداً على بنيه ما كان لهم سلطان بالأندلس . فلم يُعْمَر ولا اختُطَّت فيه دار إلى آخر دولتهم ، ثم بَعدها إلى أن ملَك الرومُ قرطبة يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، وأقام على ذلك نحواً من أربعمائة سنة وثلاثين سنة ؛ ولا أعلمه إلا كذلك إلى اليوم .

وكانت وقعة الرَّبَض الشنعاء يوم الأربعاء النحِسة لثلاث عشرة خلت من شهر رمضان سنة اثنتين ومائتين فى آخر / خلافة الحكم ، ويومَ الخميس بعده [١٢ – ب] أمر بهدم الرَّبَض القبلى الذى منه نشأت الفتنة ، فأعيد بطحاء مزرعة ، بعد أن قتل من أهله مقتلة عظيمة وأسر خلقا جمًّا ، صَلب منهم نحو ثلثمائة صُفّوا من إزاء « باب القنطرة » إلى آخر « المُصَارَة »[1] مع ضفة النهر ، لم يُرَ فيما سلف مُمَثَّلون أكثر منهم عدداً ولا أهول منظراً . وتمادى القتل والنهب لمنازلهم والتتبع لمُستَخْفِيهم ثلاثة أيام ، لم تُقَلْ لمن عُثِر عليه منهم عثرة ، وجرَتْ عليهم خلالها محن لا تضْبِطُها الصفة . وكفَّ الحكم عن الحُرَم ووصَّى بهن فأجمل فى ذلك ما شاء .

---

(١) باب القنطرة ، باب من أبواب سور قرطبة ، وكان قريباً من القنطرة – والمراد قنطرة الوادى ، أى الوادى الكبير – وهى القنطرة التى كانت تصل قرطبة بربضها الواقع على الضفة الأخرى من النهر ، وهو ربض شقندة ، معرب من اللاتينى Secunda . وكان هذا الربض مسكن العمال وأهل الأسواق ، وفى هذا الربض قامت الثورة على الحكم بن هشام ، وانجلت عن هزيمة الثائرين وطرد أهله من الأندلس ، وهدم بيوته وتحويل جزء منه إلى مدافن عرفت بمقبرة الربض . ولم يعمر هذا الموضع إلا بعد أيام المسلمين ، ويقوم فيه اليوم حى من أحياء قرطبة الحالية يعرف باسم حى الروح المقدس Barrio del Espiritu Santo ، وعلى مدخل هذا الحى ، فى مواجهة القنطرة يقوم الحصن المعروف بحصن قلهرة Castillo la Calahorra وقد أنشىء بعد أيام المسلمين . أما المُصارة Al-Musara فكان قبل الفتح العربى ضاحية قريبة من قرطبة إلى جنوب غربى البلد على ضفة النهر ، ثم اتصلت بها ، وأصبحت جزءاً منها ، ولكنها ظلت خارج السور .

ولما انقضت الأيام الثلاثة أمر برفع القتل وتأمين الفَلِّ ، على أن يخرجوا من حضرته قُرْطُبة ، فساروا عن أوطانهم كُلٌّ بحسب ما أمكنه . واستمروا ظاعنين على الصعب والذَّلول ، فى يوم الأربعاء لعشرٍ بقين من شهر رمضان المؤرخ ، متفرقين فى قَصِيِّ الكُوَر وأطراف الثغور . ولحق جمهورهم بطُلَيْطِلَة لمخالفة أهلها الحَكَمَ ، ولجأ آخرون إلى سواحل بلاد البربر . وأَصْعَدَت منهم طائفة عظيمة — نحو الخمسة عشر ألفاً — فى البحر نحو المشرق ، حتى انتهوا إلى الإسكندرية ، وذلك فى أول ولاية عبد الله المأمون بن الرشيد ، فَعَازَّهُم أهلُها وذهبوا إلى إذلالهم ، فأبوا الضيم وثاروا بهم فغلبوهم ، وبذلوا السيف فيهم ، وقتلوا كثيراً منهم وسَطَوا بهم سطوة منكرة ، وملكوا الإسكندرية مُدَيدةً . إلى أن ورد عبدُ الله بن طاهر أميراً على مصر من قِبل المأمون ، فصالحهم على التخلى عنها على مالٍ بذله لهم ، وخيَّرهم فى النزول بحيث شاءوا من جزائر البحر ، فاختاروا جزيرة إقريطش من البحر الرومى . وكانت يومئذ خالية من الروم ، فاحتملوا إليها بِقِنْيَتِهم ، ونزلوها فاعتمروها ، وجاءهم الناس من كل مكان فأوطنوها معهم .

وحكى ابنُ حَيّان ، عن أبى بكر بن القوطية وغيره ، أن الحَكم غَرَّب فى بأساء حربه هذه — عندما حَمِيَ وَطِيسُها وأعضل[1] خَطْبُها — بنادِرةٍ من نوادر الصبر والتوطين على الموت ما سُمع لأحدٍ من الملوك مِثلُها : وذلك أنه فى مقامه بالسطح[2] ، وعند بصره باشتداد الحرب وجُثوم الكَرْب وسماعه قعقعة السلاح وانتماء الأبطال ، دعا بقارورةٍ غاليةٍ لتُدنَى منه ، فتوانى بها عنه

---

(١) الأصل : أعظل ؛ ولم أجد له معنى هنا فعدلته على ما أثبت فى المتن .

(٢) يريد سطح القصر ، وكان يرقب منه جماهير أهل الربض التى أقبلت تهاجمه . وسطح القصر كثير الورود فى أخبار المروانيين الأندلسيين .

[١٤ - ا] خادمه المسمى « يَزْنْت »(١) ، ظنًّا منه / أنه لهج فى منطقه ، فصاح به وزجره ، — وفى رواية أخرى : فكأنَّ الخادمَ شَكَّ فى طلبته واتهم سمعَه ، فتوقف عن المضى لأمره ، فصاح به الحَكم : انطلِقْ يا ابن اللخناء فعَجِّلْ — فجاءه بالقارورة فأفرغها على رأسه ولحيته ، ولم يملك الخادم نفسه أن قال له : « وأيةُ ساعةِ طيبٍ هذه يا مولاى فتستعمله ، وقد ترى ما نحن فيه ؟ » فقال له : « اسكت لا أمَّ لك ! من أين يَعرف قاتلُ الحَكمِ رأسَه من رأسِ غيره إذا هو حزه ، إن لم يفرق الطيب بينهما ؟ » . ثم استَلْأم للحرب ، وأمر بتفريق السلاح والخيل على أجناده ، وأنهضهم لقتال من جاش به ، بعد أن كتَّبهم كتائب قَوَّد عليها كباراً من قواده وأهل بيته ، فانهزمت العامة بعد قتال شديد ، ولم تكن لأحد منهم كَرَّة ؛ وكانوا كالدبا(٢) كثرة .

قال : ولم ينل الحَكم بعد وقيعة الرَّبَض حلاوة العيش ، وامتُحِن بعلة صعبة طاولته أربعة أعوام ، فَلَّتْ غَرْبَه وأطالت ضَنَاه ، واحتجب فيها آخِرَ مدته واستناب ولده عبد الرحمن فى تدبير ملكه ، فمات على توبةٍ من ذنوبه وندمٍ على

---

(١) كذا ورد الاسم فى الأصل ، وورد فى الأخبار المجموعة « بزنت » بالباء . وقد ذهب دوزى إلى أن يَزَنْتْ أو يَزَنْتُ هو الصورة العربية لاسم أيبيرى رومانى : Jacinto ، ولا زال هذا الاسم مستعملا فى إسبانيا إلى اليوم ، وهو مأخوذ من اللفظ اليونانى Hyacinthe ومعناه « ياقوت » . أما ريبيرا Julián Ribera فقد قرأه بالباء وكتبه فى الترجمة الإسبانية للأخبار المجموعة Vicent وهى الصورة القطلونية للاسم المعروف Vincent . والقراءتان مقبولتان .

cf : DOZY, *Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquète de l'Andalousie par les Almoravides.* Nouvelle édition revue et mise à jour par E. Lévie - Provençal, Leyde, 1932 vol. I, p. 298 et note.

الخشنى ، تاريخ قضاة قرطبة ، بتحقيق خليان ريبيرا ، مدريد ١٩١٤ . مقدمة الترجمة الإسبانية ص ٢١ .

(٢) والدَّبا صغار الجراد أو النمل .

ما اقترف منها بين صلاتى الظهر والعصر من يوم الخميس لأربع بقين من ذى الحجة سنة ست ومائتين[١] .

ومن شعره فى ذلك يعذر نفسه بالدفاع عن ملكه والحماية لسلطانه ، وهو من أحسن شعر قيل فى معناه :

رَأَيتُ[٢] صدوعَ الأرضِ بالسيفِ راقماً[٣] ... وقِدْماً لأمتُ الشَّعبَ مُذْ كنتُ يافعاً

فسائلْ ثغورى : هل بها اليومَ ثُغرةٌ ... أبادرها مُستَنْضِيَ السيفِ[٤] دارعاً

وشافِهْ على[٥] الأرض الفضاء جماجماً ... كأقحافِ شِريانِ الهَبيد لَوامعا

تُنبِّئْكَ أنى لم أكن فى قِراعهمْ ... بِوانٍ ، وقِدماً[٦] كنتُ بالسيفِ قارعا

وإنى إذا حادوا حذاراً[٧] عن الردى ... فلستُ أخا حَيدٍ عن الموت جازعا

حَمَيْتُ ذِمارى فانتهكْتُ ذِمارَهمْ ... ومَن لا يُحامى ظلَّ خَزْيانَ ضارعا

---

(١) كانت ثورة الربض – أو هيج الربض ، كما تسمى فى النصوص – بعيدة الأثر فى سلوك الحكم الربضى بصفة خاصة وسياسة خلفائه من بنى أمية الأندلسيين حيال أهل قرطبة وشعب الأندلس بصفة عامة . فأما الحكم فقد اتعظ بما وقع خلالها فلم يعد إلى الاستبداد والعسف والاستخفاف بالناس ، كما كان يفعل قبلها ، لأنه عرف أن سلوكه الأول واستخفافه بالدماء هما سبب هذه الفتنة الكبيرة ، ثم إن إسرافه فى القتل وإجلاء أهل الربض عن دورهم ثم هدمه وتحويله إلى أرض زرع ، كل ذلك كان بعيد الأثر فى نفسه ، فمال إلى التقى والتكفير عما اقترف . وقد ظل على ذلك حتى توفى فى ٢٥ ذى الحجة سنة ٢٠٦ / ٢١ مايو ٨٢٢ . وأما بالنسبة لسياسة خلفائه فقد تعلموا احترام الناس وحقوقهم وسلكوا حيالهم سياسة لين وفهم واحترام ، فلم يقع مثل هيج الربض بعد ذلك .

(٢) قرأها دوزى : رأيت .

(٣) فى النفح : راقما .

(٤) فى النفح : العزم .

(٥) فى الأصل : مع .

(٦) فى النفح : وإنى .

(٧) فى النفح : جزاعا .

ولَمّا تساقَيْنا سِجالَ حُروبِنا سَقَيْتهمُ سَجْلاً[1] من الموتِ ناقِعا
وهل زِدتُ أنْ وفّيتُهم صاعَ قَرْضِهم فلاقَوْا[2] منايَا قُدِّرتْ ومصارِعا
[١٤ - ب] / فهاكَ بلادى[3] إننى قد تركتُها مِهاداً ، ولم أترك عليها منازعا

قال عثمان بن المثَنّى النحوى[4] المؤدب : قدم بعد الوقعة علينا عباس بن ناصح[5] قُرْطُبَةَ أيامَ الأمير عبد الرحمن بن الحَكم ، فاستنشدنى شعرَ الأمير الحَكم فى الهَيْج فأنشدته إياه ، فلما بلغت إلى قوله :

وهل زدتُ أن وفيتهم صاع قرضهمْ فلاقَوْا منايا قُدِّرتْ ومصارعا

قال عباس : « لو أنَّ الحَكم يَخْشَى[6] للخصومة بينه و بين أهل الربض لقام بعذره فيهم هذا البيت » . وفى رواية[7] : إذا كانت الخصومة بينه و بين أهل الربض أجَبْرَتْه[8] ، فإن هذا البيت لَيُحاجِجُ عنه يوم القيامة .

---

(١) النفح : سماً . والسَّجْل الدلو الضخمة المملوءة ماء (اللسان : ٣٤٦/١٣) .

(٢) النفح : فواقوا .

(٣) الأصل : سلاحى ، والتصويب من النفح .

(٤) عثمان بن المثنى من أهل قرطبة ، يكنى أبا عبد الملك ، من أهل الأدب والنحو. رحل إلى المشرق « فلقى جماعة من رواة الغريب وأصحاب النحو والمعانى ، منهم محمد بن زياد الأعرابى ، أخذ عنه وعن غيره ، وقرأ على حبيب بن أوس (الطائى ، وهو أبو تمام) وأدخله الأندلس رواية عنه ، وأدب أولاد الإمام عبد الرحمن بن الحكم وأولاد محمد . وعمّر إلى أن بلغ ٩٩ سنة ، وتوفى رحمه الله سنة ٢٧٣ » (٨٨٧ م) ابن الفرضى ، علماء ، رقم ٨٨٩ ص ٢٤٩ .

(٥) عباس بن ناصح الثقفى الجزيرى نسبة إلى الجزيرة الخضراء ، إذ أن الحكم الربضى ولاه قضاءها . كان شاعراً نحوياً مؤدباً ترجم له ابن الفرضى (رقم ٨٧٩ جـ ١ ص ٢٤٥) وقال إنه رحل إلى الأندلس ولقى أبا نواس وسمع منه شعره . وترجم له ابن سعيد فى المغرب (بتحقيق الدكتور شوقى ضيف ، القاهرة بدون تاريخ) ١ / ٣٢٤ . وانظر عنه : الدكتور إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسى (بيروت ١٩٦٠) ص ٣٦ - ٣٧ .

(٦) الأصل : يجثى ، وقد قرأها دوزى : يخشى .

(٧) فى الهامش على اليمين مقابل هذا السطر - للخصومة فى الربض .

(٨) الأصل : جيرته ، ويمكن قراءته أيضاً : أجبرته .

وله أيضا فى ذلك :

غِناه صَليلِ البِيضِ أشهى إلى الأذنِ … من اللحن فى الأوتار واللهو والرَّدْنِ(١)
إذا اختلفتْ زُرْقُ الأسِنَّةِ والقَنا … أرَتْكَ نجوماً يَطَّلِعْنَ من الطعن
بها يهتدى السارى وتنكشفُ الدجى … وتَسْتَشْعِرُ الدنيا لباساً من الأمْن
شققتُ غمارَ الموت تُخطِئُ مهجتى … سهامُ ردًى قبلى أصابتْ ذوى الُجبْن
إذا لفحتْ ريحُ الظهائر لم يكنْ … لِقاعِىَ فيها غيرَ فَىْءِ القنا اللَّدْن
و إن لم يجدْ حصناً سوى الفَرِّ مُقدِمٌ … فمالىَ غيرُ السيف والرمح من حصن
قذفتُ بهم [من] فوقِ يَهْماءَ فانْزوَت … له الأرضُ واستولى على السهل والحَزْن
فسار يروِّى كل صَدْيانَ حائمٍ … وسَحَّ كما سحَّتْ عَزالِى من المزن(٢)
و إنْ عَنَّ للتيار مِنْ سَيَلانِهِ … ذُرَى شاهقٍ أضحى كمُنْتَفِشِ العِهْن
هَنأْتُ به حَرباً تقشَّعَ بَحْرُها … بحمل هناء ليس يصْلُحُ لِلبُدْن

وله فى النسيب :

ظلَّ من فرط حبه مملوكا … ولقد كان قَبْلَذاكَ مليكا
إن بكى ، أو شكا الهوى ، زِيد ظلماً … و بِعاداً يُدنى حِماما وشيكا
تركتْه جآذرُ القصرِ صَبًّا … مُستهاماً على الصعيد تَريكا
/ يجعل الخدَّ واضعاً(٣) فوق تربِ … للذى يجعل الحريرَ أريكا [١٥ - ١]
هكذا يحسن التذلل فى الحُبِّ(٤) إذا كان فى الهوى مملوكا

(١) لعلها الدَّدَنُ (بفتحتين) بمعنى العبث واللهو . وقد سُنَّ الراء للوزن .
(٢) المزنة العزال هى السحابة التى تنهمر بالماء (اللسان : ١٣ / ٤٦٩) جمع عزلاة ، وهى فم المزادة أو القربة .
(٣) وردت هذه الأبيات فى البيان المغرب لابن عذارى (٢/٨٠) وقد ورد هذا اللفظ هناك : ماثلا .
(٤) فى البيان المغرب : للحُرِّ .

وله فى خمسِ جَوَارٍ من حظاياه ، كُنَّ مصطحبات فتغاضَبْن عليه وقتاً فى طريق الغيرة وهجرنه :

قُضبٌ من البان ماست فوق كُثبانِ ولَّيْن[1] عنى وقد أزمعن هِجرانى
ناشدتهن بحقِّى فاعتزمن على الـ مصيان[2] ، حتى حلا منهن عصيانى[3]
مَلَكنَنى مِلْكَ مَن[4] ذلَّتْ عزائمُه للحب ذُلَّ أسيرٍ مُوثَقٍ عانِ
من لى بمُغتصبات الروح من بدنى يَغصِبْننى فى الهوى عزى وسلطانى !

١١ — إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن[5] ابن على بن أبي طالب

وُلد لعبد الله بن حسن . وكان شيخَ بنى هاشم فى وقته إدريسُ الأكبر وأمه هِندٌ بنت أبى عبيدة المُطَّلبية ، وإدريس الأصغر هذا أمه[6] عاتكة بنت عبد الملك بن الحارث المخزومية ، وأخواه منها : عيسى وسليمان ؛ حكى ذلك أبو على حسين بن أبى سعيد عبد الرحمن بن عبيد القيروانىُّ المعروف بالوكيل فى كتابه « المُغرِب عن أخبار المغرب » واختصرتُه منه . وذَكر أن إسحاق

(١) وردت هذه الأبيات أيضاً فى البيان المغرب لابن عذارى (٢/٧٩) . وقد جاء هذا اللفظ هناك : أعرضن .

(٢) روايةالبيان : الهجران .

(٣) رواية البيان : حتى خلا منهن هَيمَانى .

(٤) فى الأصل : مِلْكاً ، والتصويب من البيان المغرب .

(٥) الأصل : إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن على بن أبى طالب . وهو خطأ ، وقد صوبناه كما فى المتن .

(٦) فى الأصل : وأمه .

ابن عيسى كان على المدينة ، فلما مات المهدى ووَلىَ موسى الهادى شَخَصَ وافداً عليه ، واستخلف على المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب[١] ، فخرج عليه بها الحسينُ بن على بن الحسن بن الحسن العلوى ، واستخفى العُمَرىّ حتى خرج الحسين إلى مكة فى ذى القعدة سنة تسع وستين ومائة .

وكان قد حج فى تلك السنة رجال من بنى العباس ، منهم محمد بن سليمان ابن على ، والعباس بن محمد ، وموسى بن عيسى ، وعلَى الموسم سليمان بن أبى جعفر ؛ فكتب الهادى إلى محمد بن سليمان يولّيه الحرب ، فالتقوا بفَخّ ، وخلّفوا عبيد الله ابن قُثم بمكة للقيام بأمرها . وكانت الوقعة يوم السبت ، يومَ التَّروية ، فقُتل الحسينُ القائمُ وسليمان بن عبد الله ؛ وانهزم الناس فنودى فيهم بالأمان ولم يتبع هاربٌ ، وحُزَّت الرؤوس فكانت مائة ونيفاً .

وكان فيمن هرب يحيى و إدريس / ابنا عبد الله بن حسن ؛ فأما إدريس [١٥ - ب] فلحق بالمغرب ولجأ إلى أهله فأعظموه ، ولم يزل عندهم إلى أن احتيل عليه ؛ وخلّف ابنه إدريس بن إدريس ، فملكوا[٢] تلك الناحية وانقطعت عنهم البعوث .

وأما يحيى فصار إلى جبل الدَّيْلَم فأقام عند صاحبه ، إلى أن شخص إليه الفضل بن يحيى بن خالد فى أيام الرشيد ، فأمّنه وحمله إليه .

وقد قيل إن إدريس هرب إلى المغرب فى أيام أبى جعفر المنصور ، عند قتل أخويه محمد و إبراهيم القائمين عليه بالمدينة وبالبصرة ، وأن أبا جعفر بعث إليه من سمّه ؛ والصحيح أن ذلك كان فى خلافة الهادى بالعراق ، وبعد عشرة أشهر وأيام منها ، وفى آخر خلافة عبد الرحمن بن معاوية بالأندلس ، وقبل وفاته بعامين وأشهر ، وأن إدريس وقع إلى مصر وعلى بريدها واضحٌ مولى صالح بن المنصور

(١) واضح أن المراد هنا غير عمر بن عبد العزيز بن مروان الخليفة . انظر عن نسب هذا المذكور فى المتن « جمهرة أنساب العرب » ص ١٤٣ .

(٢) كذا فى الأصل ، والمراد إدريس بن إدريس وآله .

— وكان رافضيًّا — فحمله على البريد إلى أرض المغرب حتى انتهى إلى مدينة « وَلِيلِي »[١] من أرض طَنْجَة ، فاستجاب له مَن بها و بأعراضها من البَربر ، فلما وَلِيَ الرشيد علم بذلك فضرب عنق واضح وصلبه ، ودسَّ إلى إدريس مَن أنس به واطمأن إليه ، وكتب له كتاباً إلى إبراهيم بن الأغلب عامله على إفْرِيقِيَّة فاحتال حتى سَمَّه .

واختُلف فيمن سَم إدريس وما سُم فيه . فقيل : الشَّماخ المشماسى[٢] مولى المهدى سَمَّه فى سَنُون[٣] سقطت منه أسنانه لما استعمله ومات من وقته ، وسيأتى خبره بعد إن شاء الله . وقيل : بل سليمان بن جرير الرَّقِّى كان سبب سَمِّه ، وكان إدريس به واثقا فأُتِى من قِبَـله ، وهرب مع الرسل الذين أتوا فى ذلك ، وطُلب ففات .

ويقال : إن سليمان هذا — وكان يقول بإمامة زيد بن على بن الحسين — ناظرَ إدريس يوماً فى شىء فخالفه ، ثم دخل الحمام ، فلما خرج بعث إليه سليمان بسمكة مشوية أنكر نفسه عند أكله منها ، فشكا بطنه وقال : « أدركوا

---

(١) وَلِيلِي ، وتنطق أحياناً وَلِيلَى — والأولى أصح — مدينة أثرية فى المغرب تسمى عند العامة قصر فرعون ، وتقع على ٣ كيلومترات شمال شرق بلدة مولاى إدريس التى تضم ضريح إدريس الأكبر مؤسس دولة الأدارسة ، وهذه الأخيرة على نحو ٢٠ كيلومتراً غربى فاس ، وهى من تأسيس المغاربة القدامى الذين يسمون بالمُرْطانيين ، جعل منها الرومان مدينة زاهرة خصوصاً فى عهد الإمبراطورية . اكتشفت آثارها سنة ١٨٧٣ وابتدأت عمليات الحفر بها سنة ١٩١٥ ولا تزال متواصلة إلى اليوم .

انظر : أحمد المكناسى : خريطة المغرب الأركيولوجية للمواقع الأثرية لما قبل التاريخ إلى ظهور الإسلام (تطوان ١٩٦١) ص ٢٤ .

والبكرى : صفة إفريقية والمغرب ، ص ١١٨ وما بعدها .

(٢) كذا فى الأصل ، وقرأها ماركوس مولر : الشماسى ، ص ١٩٨ . وجاء فى البيان المغرب لابن عذارى : الشماخ مولى الهادى . . « وذكر أنه متطبب من شيعتهم العلوية » (٨٣/١) .

(٣) السَّنُون كل مسحوق كانوا يستعملونه لدواء الأسنان .

سليمان ! » فأُدرك ، وقيل له : « أجب ! » فامتنع ، فضُرب على وجهه بسيف ، وضُرب أخرى على يده فانقطعت أصبعه ، وأفلت . وقيل : سُمَّ فى طيب تطيب به . وولده وأهل بيته يقولون : إنما سُمَّ فى بطيخة . وهم وإن اختلفوا فى الشيء الذى سُمَّ به ، فهم مجمعون على أنه مات مسموما . ومن شعره :

أليس أبونا هاشم شـد أزره وأوصى بنيه بالطعان وبالضربِ
/فلسنا نمل الحرب حتى تملّنا ولا نتشكَّى ما يهول من النَّكبْ [١٦ – ١]

١٢ — ابنه إدريس بن إدريس بن عبد الله ، أبو داوود

قال أبو الحسن على بن محمد النَّوْفَلِىّ : توفى إدريس بن عبد الله وجارية من جواريه حبلى اسمها كَنْزَة ، فقام « راشد » مولاه — ويقال إنه مولى أخيه عيسى بن عبد الله ، وهو الذى خرج به حتى أقدمه المغرب — بأمر البربر . إلى أن ولدت الجارية غلاماً فسماه باسم أبيه « إدريس » ، وقام بأمره حتى بلغ الغلام وأدَّبه ؛ وكان مولده فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وسبعين ومائة .

وتوفى راشد سنة ست وثمانين ، فقام بأمر الغلام أبو خالد يزيد بن إلياس ، وأخذ بيعة البربر له يوم الجمعة فى شهر ربيع الآخر سنة سبع وثمانين ، وهو ابن إحدى عشرة سنة . وأسس مدينة القرويين[١] سنة ثلاث وتسعين ، وخرج إلى

---

(١) يريد فاس القرويين ، أى فاس الأولى التى أنشأها القيروانيون ، وهى منسوبة إليهم . وسينشىء مهاجرة الأندلس الذين خرجوا منها بعد هيج الربض ضاحية لفاس هذه تعرف باسم فاس الأندلسيين ، وتسمى كل منهما عدوة فيقال عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين ، ومنهما معاً تتكون فاس . انظر بيان ذلك فى « البيان المغرب » لابن عذارى (٢/٢١١) .

نِفِّيس(١) فى المحرم سنة سبع وتسعين ، ثم غزا نفزة وتلمسان وتوفى سنة ثلاث عشرة ومائتين وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة : سُمَّ فى حبة عنب فلم يزل مفتوح الفم سائل اللعاب حتى مات .

وعن غير النَّوْفَلِيّ أن زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب هو الذى احتال عليه حتى اغتاله .

وعامة مَن فى المغرب من الحسَنِيين من ولد إدريس هذا ، ومنهم بنو حَمُّود الخلفاء فى قُرْطُبَة بعد الأربعمائة .

وذكر أبو بكر الرازى(٢) أن إدريس بن عبد الله دخل المغرب سنة اثنتين

(١) نِفِّيس ، هكذا ورد الاسم مضبوطاً فى الأصل ، ولكن الأغلب نَفِّيس . ذكرها البكرى (ص ١٦٠) وقال إنها قرب أغمات وقال إنها تعرف بالبلد النفيس وأنها بلد كثير الأنهار والثمار ، « ليس فى ذلك القطر موضع أطيب منه ولا أجمل منظراً » ، وقال إنها بلدة عامرة آهلة بينها وبين البحر مسيرة يوم ، أى حوالى ٤٠ كيلومتراً . وهو تقدير غير دقيق ، لأن وادى نفيس واد صغير معروف يصب فى بحيرة جنوبى مراكش . ومكانها اليوم قرية صغيرة تعرف بالمدينة بين تانزَلْت ودَرْكالَة .

(٢) المراد أبو بكر أحمد بن محمد الرازى المؤرخ ، وهو أبو أحمد بن محمد الرازى المؤرخ والد عيسى بن أحمد الرازى مؤرخا الأندلس المعروفين .

وهذه العبارة ذات أهمية تاريخية كبرى ، فهى تقرر بوضوح أن الذى اختط فاس كان إدريس بن عبد الله أى إدريس الأول ، لا ابنه إدريس الثانى كما كان يظن اعتماداً على كلام ابن أبى زرع مؤرخ فاس فى كتابه المعروف « روض القرطاس » . وقد ناقش الموضوع مناقشة شاملة ليڤى پروڤنسال فى بحثه القيم عن « اختطاط فاس » واعتمد على عبارة الرازى هذه وعبارات أخرى لابن القاضى فى « جذوة الاقتباس » والجزنائى فى « زهرة الآس » . وأثبت بالفعل أن اختطاط فاس كان على يد إدريس الأول فى رمضان ١٧٢ فبراير / ٧٨٩ . انظر :

E. LÉVI-PROVENÇAL, *L'Islam d' Occident*, chapitre 1 : *La Fondation de Fès*, pp. 3-41.

وقد تُرجم هذا الكتاب إلى العربية بعنوان : « دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس » ، ترجمه الدكتور صلاح الدين حلمى وراجعه الدكتور لطفى عبد البديع ، ونشرت الترجمة فى سلسلة الألف كتاب فى القاهرة سنة ١٩٥٧ .

وجدير بالذكر هنا أن « روض القرطاس » –رغم ما يتمتع به من مكانة بين مراجعنا– يعتبر من أحفلها بالأخطاء ، ولابد من الحذر الشديد فى استعماله .

وسبعين فى شهر رمضان هارباً بنفسه من أبى جعفر ؛ فنزل موضعاً يقال له « وَلِيلِى » بوادى الزيتون ، فاجتمعتْ إليه قبائل من البربر فقدموه على أنفسهم وبَنَوْا مدينة فاس ؛ وكانت أجمةً شَعْراء ، ولما احتفرت أساساتها ألفى فى بعضها فأسٌ فسُميت بمدينة « فاس » وسكنها البربر ، فلم تطل أيامه وهلك سنة أربع وسبعين ومائة . وترك جارية حاملا منه ، فولدت بعده ابناً سمى بإدريس ابن إدريس ، ملَك بعد أبيه مدينة فاس وطالت مدته ، وتوفى فى شهر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة ومائتين ، ومولده فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وسبعين[1] .

كذا قال الرازى ، وقد تقدم التنبيه على غلط القائل بدخول إدريس المغرب فى خلافة أبى جعفر المنصور .

ومن شعر إدريس بن إدريس يخاطب البهلول بن عبد الواحد المَدْغَرِىّ ، ذاهباً إلى مراجعة طاعته ومحذِّراً مكرَ / إبراهيم بن الأغلب ، وهو الذى كان [١٦ - ب] أفسده عليه حتى قاتله البهلول :

كأنكَ لم تسمعْ بمكرِ ابنِ أغلبٍ ... وما قد رمى بالكيدِ كلَّ بلادِ
ومن دونِ ما مَنَّتْك نفسُك خالياً ... ومنّاك إبراهيمُ خرطُ قَتَادِ

وكتب إلى إبراهيم بن الأغلب يدعوه إلى طاعته أو الكف عن ناحيته ، ويذكره قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى أسفل كتابه :

أُذَكِّرُ إبراهيمَ حقَّ محمدٍ ... وعترتِه والحقُّ خيرُ مَقُولِ
وأدعوه للأمر الذى فيه رشدُه ... وما هو لولا رأيه بجهولِ
فإن آثر الدنيا فإن أمامَه ... زلازلُ يومٍ للعقابِ طويلِ

وله يتشوق أهل بيته :

لو مال صبرى بصبر الناس كلهمُ ... لضَلَّ فى رَوْعتى أو ضَلَّ فى جَزَعى

(١) لم تطل مدته على هذا ، فقد ولد سنة ١٧٥ هـ وتوفى سنة ٢١٣ .

وما أَرِيعُ إلى يأسٍ ليُسْلِيَنى ... إلا [... ...] يأسٌ إلى طمعِ
وكيف يَصْبر مَطْوِىٌّ هضائمُه ... على وساوسِ همٍّ غيرِ منقطع
إذا الهمومُ توافتْ بعد هجعتِه ... كرَّتْ عليه بكأسٍ مُرَّةِ الجُرَع
بانَ الأحبةُ واستبدلْتُ بعدهمُ ... همًّا مقيماً وشملاً غيرَ مجتمع
كأننى حينَ يُجرى الهمُّ ذكرَهمُ ... على ضميرىَ مخبول من الفزع
تأوى همومى إذا حرَّكْتُ ذكرَهُمُ ... إلى جوانح جسمٍ دائمِ الولع

١٣ — عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم ، أبو مروان /وقيل أبو الوليد [١ - ١٧]

قعيدُ جماعة آل مروان فى وقته وفارسُهم وشهابهم . قدِم من مصر على عبد الرحمن بن معاوية فى سنة أربعين ومائة ، أولَ ولايته بالأندلس ، وهو فى عشرة رجال من بنيه فرسانٍ ، فولاه إشبيلية ، وولَّى ابنَه عبد الله مَوْرُور ، وأغنى فى حرب يوسف بن عبد الرحمن الفِهْرِىّ عند نكثه وفراره من قُرْطُبَة حتى قُتل .

وقيل : كان والياً على ماردَة ، وابنه على لَقَنْت . ولما زحف أهل حِمْصَ[1] إلى عبد الرحمن بن معاوية يطلبونه بثأر أبى الصَّبّاح اليَحْصُبِىّ — وكان قد طاح على يديه — أبلى عبدُ الملكِ هذا بلاءً حسنا ، وقَتل ولدَه أميةَ صبراً لما انحاز إليه منهزما : قدَّمه فضرب عنقه ، فهابه الجند وشدوا معه ومع سائر بنيه ، فكانت

(١) يريد أهل إشبيلية وناحيتها من العرب ، وكذلك كانت تسمى بعد أن أنزل أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى جند حمص فى إشبيلية .

الدبرة على أهل حِمصَ ومَن معهم ، وفتح الله على يديه فتحاً لا كفاء له ، وأجْلَتِ الحربُ عنه جريحاً فأحظاه عبدُ الرحمن . وقيل : بل قتل ابنه المذكور فى حرب يوسف الفهرى حين[1] انهزم وقُتل من أصحابه نحو عشرة آلاف ، ولم تقم له بعد قائمة ، فأحظاه عبد الرحمن وقدمه واستوزر بنيه عبد الله وإبراهيم وحَكَماً ، وزوَّج ابنتَه كَنْزَةَ[2] من ابنه هشام ولى عهده ، فقال عبدُ الملك فى ذلك من قصيدة طويلة :

فيا زمناً أوْدَى بأهلى ومعشرى ... لقد صِرْتَ فى أحشائنا لاذعاً جمرَا
ويزدادُ دهرُ السوء غِشًّا وظُلمةً ... كأنَّ على شمسِ الضحى دوننا سِتْرَا
إلى أن بدا من آل مروان مُقْمِرٌ ... أضاءَ لنا مِن بَعدِ ظُلمته الدهرا
هِجَانٌ أصيلُ الرأىِ نَدْبٌ مهذبٌ ... أقام لنا مُلكاً وشد لنا أزرا
وأنبتَ آمالاً وأثبتَ نعمةً ... وجئنا فألفينا الكرامةَ والبِرّا
أنالَ وأغْنَى مُنْعِماً متفضِّلاً ... وأصْفَى لنا مأمولَ أبنائه صِهرْا
فنحن حواليْه النجومُ تجمعتْ ... إلى البدر حتى صِرنَ مِن حوله حَجْرا[3]

ومنها يذكر زفاف ابنته كَنْزَةَ هذه :

لعَمرى لقد أهديتُ بيضاءَ حُرةً ... إلى خير مَن أغلَى بأثمانها المهرَا
/لها حَسَبٌ يأبَى عَلى كُل مُقرِفٍ ... ويَرْضَى لها تلك الخضارمة الزهرا [١٧-ب]
وآل أبى العاصى همُ نظراؤها ... فأكرِمْ بشمسٍ أُنكحتْ قمراً بدرا

---

(١) الأصل : حتى .
(٢) قرأها دوزى ، ص ٤٣ : كثرة .
(٣) الحَجْر هو الستر والمانع (اللسان : ٥/٢٣٩) .

١٤ – عبد الملك بن بشر بن عبد الملك بن بشر ابن مروان بن الحكم

كان أبوه بِشر من أمراء الأموية ، فقتله أبو جعفر المنصور مع يزيد بن عمر ابن هُبَيْرة الفِزَارى آخر عمال بنى أمية على العراق ، ونجا ابنه عبد الملك هذا فى فَلِّ القوم إلى المغرب ، فقصد الأندلس ، ودخلها فى صدر أيام الأمير عبد الرحمن ابن معاوية ، مع ابن عمه جُزَىّ بن عبد العزيز بن مروان أخى عمر بن عبد العزيز ، وسكن جواره بقُرْطُبَة ، ويعرف بالبِشْرِىّ . وهو القائل فى مقتل أبيه :

لستُ أنسى مصرعاً مِن والدٍ   سيدٍ ضخمٍ وعَمٍّ مفْتَقَدْ
غادرتْهُ الخيلُ فى معترَكٍ   بين عمٍّ وأبٍ زاكٍ وجَدّْ
تَسْهك[1] الريحُ عليه بالضحى   وتُعفِّيه أعاصيرُ الأبَدْ
لم يَرُدَّ الموتَ عنه إذْ سَما   نحوهُ كثرةُ مالٍ وعددْ
أمَوِىٌّ حَكَمِىٌّ عَرفتْ   سَوْرة المجد له عُليا مَعَدْ
عاش فى مُلكٍ عزيزاً دونه   حُجُبُ المُلك وأبوابُ الرَّصَدْ
فانتحته بالمنايا فثوَى   لِعَوافى الطَّير مسلوبَ الجَسَدْ

وله :

يا معشراً شغفَ الطعامُ قلوبَهم   فهمُ طِماحٌ نحو كُلِّ دُخَانِ
يهدى لواءهمُ ويحمل بَنْدَهمْ   فى كل معترك أبو سَعَدانِ

(١) سَهِكت الريح وسَهَكت الدابة سُهُوكا جرت جرياً خفيفاً ، وقيل سهوكها استنانها يميناً وشمالا . (اللسان : ١٢/٣٣٠)

يمشى كمشى الليثِ راح عشيةً من غابِهِ وأمامه شِبلانِ
لو يعرِض الخَطِّىُّ دونَ وليمــةٍ مشروعةٍ فى صدره لطِعانِ
لمضى بصادقِ نيــةٍ وبصيرةٍ فيها وقلب[1] مُشَيَّعٍ شيْحَانِ[2]
/حتى يغيِّبَ فى الثريد ذراعَه ويجوسها بأشاجعٍ[3] وبنَانِ [١٨-ا]

وله :

وبِنَفْسِى مَن عندها اليومَ قلبى عَلِقٌ فى حبــالها معمودُ
كلما قلتُ قد تناهيتُ عنها عادنى من غرامها ما يعودُ
فبقلبى من لاعجِ الحبِّ منها كلَّ يومٍ سُقْمٌ وحزنٌ جديدُ

١٥ — حبيب بن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك ابن مروان ، أبو سليمان

كان بالأندلس فى سلطان عبد الرحمن بن معاوية ، وكانت له منه خاصةٌ لم تكن لأحد من أهل بيته ، وولاّه طُلَيْطِلَة وأعمالَها ؛ وهو القائل يخاطبه مُغْرِيًا بأبى الصَّبّاح[4] عليه :

يا ابن الخلائفِ إنى ناصحٌ لكم فى قتل ذى إحَنٍ يرتادُ للنِّقَمِ

---

(١) قرأها دوزى (ص ٤٤) : وقلت .

(٢) شايَع الرجل جَدَّ فى الأمر ، والشَّيْحان الذى يتَهَمَّس عَدْواً ، أراد السرعة (اللسان : ٤ / ٣٣٢) . والمشيع هو الشجاع .

(٣) الأشاجع هى عظام الأصابع (اللسان : ١٠ / ١٠) .

(٤) هو أبو الصَّبّاح بن يحيى اليَحْصُبى من كبار اليمنيين الذين أعانوا عبد الرحمن الداخل على الوصول إلى الإمارة . وقد ولاه عبد الرحمن على إشبيلية ، ثم عزله

لا يُفْلِتَنْكَ فيأتينا ببائقـــةٍ واشدُدْ يديْكَ به تبراً مِن السَّقَمِ
جَلِّلْهُ عَضْباً مِن الهِندىِّ ذا شُطَبٍ إن الصرامةَ فيه فَعْلَةُ الـكرمِ

ذكر ذلك ابنُ حَيّان ، وقيل إن هذا الشعر لعبد الملك بن عمر بن مروان ابن الحكم .

وتوفى حبيب هذا فى أيامه ، فشهد جنازته ومعه ستة من ولده ، فلما صلى عليه قعد وهو يُوارَى ، فالتفت عبدُ الرحمن فرأى ولده هشاماً قاعداً ناحيةً قد [...][1] فى قعوده ، فقال : « ما هذا يا أبا الوليد ؟ أيُدفن عمُّك وخيرُ أهلِ بيتِك وأنت قاعد ؟ قم واشدد نطاق الحزن عليك ، فلن ترى فى قومك مثل أبى سليمان » ، فقام .

وكان حبيب من الذين يشاورهم فى رأيه وإدارته عبدُ الرحمن بن معاوية ويُدنى مجالسَهم منه [ويضمه][2] إلى خاصته من نُقَباء دولته وسائر أصحابه ومواليه .

* * *

نرجع إلى ذكر الأمراء من غير الهاشمية والأموية على الترتيب كما شرطنا فى صدر الكتاب :

= عنها ، فجمع أنصاره وثار عليه ، فأرسل إليه عبد الرحمن مولاه تَمّاماً ، فأقنعه بالاستسلام دون قتال ، وأتى به قرطبة مع ٤٠٠ من أنصاره دون عهد . فلما التقى بعبد الرحمن عاتبه ، فأغلظ له أبو الصباح فى الجواب ، فأمر بقتله ، وقتل سنة ١٤٩/٧٦٦ .

انظر : ابن عذارى ، البيان المغرب ، ٢/٥٣ .

(١) بياض بقدر كلمة .

(٢) الأصل .

١٦ ــ الحُسام بن ضِرار بن سَلامَان الكَلْبِىّ ، أبو الخَطَّار (بالراء)

وَلِىَ إمارة الأندلس فى سنة خمس وعشرين ومائة ، من قِبَل حنظلة بن صفوان بن نوفل الكلبى والى إفريقية لهشام بن عبد الملك ثم للوليد بن يزيد بن عبد الملك . وكان قد ولى بإفريقية ولايات فى إمرة بشر بن صفوان / الكلبى [١٨ – ب] أخى حنظلة ، ويقال إن أهل الأندلس الشاميين والبلديين كتبوا إلى حنظلة بن صفوان والِى إفريقية والمغرب يسألونه أن يبعث إليهم عند اختلافهم والياً يجتمعون عليه ، فبعث أبا الخطّار هذا ، فأقبل إليهم حتى قدم عليهم ، فأطاعه أهلها واجتمعوا عليه ، ودانت له الأندلس جمعاء(١) إلى ولاية مروان بن محمد بن مروان آخر خلفاء بنى أمية .

ولم يتقدّم فى ولايته الأندلس شيئاً على تفريق جميع العرب الشاميين الغالبين على البلد عن دار الإمارة قُرْطُبَة ، إذ كانت لا تحملهم ، وأنزلهم مع العرب البلديين على شِبهِ منازلهم فى كُوَر شامهم . وتوسّع لهم فى البلاد :

فأنزل فى كورتى أُكْشُونُبَة وباجة جندَ مصر مع البلديين الأوّل ، وأنزل باقيهم فى كورة تُدْمِير ؛

وأنزل فى كورتى لَبْلَة وإشبيلِيَة جندَ حِمْص [مع البلديين] الأوّل أيضا ؛

وأنزل فى كورة شَذُونة والجزيرة جندَ فلسطين ؛

وأنزل فى كورة رَيَّة جندَ الأردن ؛

---

(١) الأصل : جمعا .

وأنزل فى كورة إلبيرة جند دمشق ؛
وأنزل فى كورة جيّان جند قِنَّسْرِين (١) ؛

(١) هذه الإشارة تدل على أن الأندلس كان فى ذلك الوقت المبكر مقسما إلى كور محددة واضحة ، وقد ثبت هذا التقسيم كما هو إلى آخر أيام الخلافة ، مما يدل على أنه كان تقسيماً سليماً قائماً على أسس سليمة قديمة ، فلم يحتج بعد إلى تعديل ، وهذا ما حدانا إلى القول فى « فجر الأندلس » بأن العرب وجدوه قائماً ، فأقروه مع تعديلات طفيفة . وهذه الكور التسع هى التى عرفت بالكور المجندة ، وكلها واقعة على الوادى الكبير أوجنوبه أوفى مستواه ، وهى تكوّن معظم جنوب شبه الجزيرة . انظر عن حدودها « صفة الأندلس » للرازى التى لم تبق لنا إلا فى ترجمتها البرتغالية والإسبانية ، وقد ترجمها ليڤى پروڤنسال إلى الفرنسية :

LÉVI-PROVENÇAL, *La Description de L' Espagne de Razi*, Al-Andalus, *XVIII* (1953) pp. 5°. sqq.

وسنشير إلى هذه الترجمة دائماً باسم « صفة الأندلس للرازى » .

وقد أوردنا فيما بعد بيان معظم الأعلام الجغرافية الواردة فى هذا النص (انظر فهرس الأعلام) فيما عدا أكشونبة وباجة وتدميروربة ، وفيما يلى التعريف بهذه الكور :

أَكْشُونُبَّة أو أَخْشُونُبَّة (تكتب خطأ فى بعض المراجع أَشْكُونبة) اسم بلدة رومانية قديمة فى الموضع الذى يسميه العرب شَنْتَمَرِيَّة الغرب Santa Maria de Algarve التى تسمى حالياً فارو Faro جنوبى البرتغال . ويقال إن Ocsonoba الرومانية كانت تقع فى الموضع الذى تقوم فيه قرية Milrau فى البرتغال التابعة لمركز Estoy . وقد أطلق اسم أكشونبة فى التقسيم الإدارى الأندلسى على كورة تحتل الركن الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة ، من نهر وادى آنة إلى المحيط الأطلسى (صفة الأندلس للرازى رقم ٥٤ ص ٩١) . وورد ذكر هذه الكورة فى « التعليق المنتقى » على أنها مدينة ، أى كورة عسكرية (ص ٢٢) ، وفى حالة أكشونبة تعتبر كورة بحرية عسكرية . وقاعدة هذه الكورة شِلْب Silves فى البرتغال الحالية . وسنتكلم عنها وعن شنتمرية الغرب فى موضعيهما (انظر فهرس الأعلام) .

انظر : دائرة المعارف الإسلامية ، مادتى Ocsonoba و Santa Maria de Algarve ، و « الروض المعطار » مواد : أكشونبة وشلب ، والترجمة الفرنسية والتعليقات .

باجَة ، فى البرتغال الحالية ، وتسمى اليوم : بيجا Beja وهى قاعدة مديرية ألينتيچو السفلى Baixo Alentejo ، وتقع على ١٤٠ كيلومترا جنوب شرق الأشبونة (لِشْبُونَة ، لِيسْبُوا) وكانت فى التقسيم الإدارى الأندلسى كورة واسعة تشمل مديرية ألينتيچو السفلى الحالية فى البرتغال وجزءاً من مديريتى بطليوس ووَلْبَة Huelva فى إسبانيا الحالية .

انظر : صفة الأندلس للرازى رقم ٤٨ و٤٩ ص ٨٧ — ٨٨ .

وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من العجم طُعْمَةً .

وبقى العرب البلديون من الجند الأول على ما بأيديهم من أموالهم لم يعرض لهم فى شىء منها ، فلما رأوا بلادًا شبه بلادهم خصباً وتوسعةً سكنوا واغتبطوا وتموّلوا[1] .

= والتعليق المنتقى ص٢١ .

والروض المعطار ، رقم ٣٥ ص ٣٦ – ٣٧ .

تُدْمِير : هو الاسم القديم لكورة مُرْسِيَة نسبت إلى تُدْمير أو تيودومير حاكم هذه الناحية أيام فتح العرب للأندلس ، والذى عقد معاهدة مع عبد العزيز بن موسى احتفظ لنفسه فيها بشىء من الاستقلال (انظر فجر الأندلس ، ص ١١٢) ثم حولها عبد الرحمن الداخل إلى كورة عادية . وكانت قاعدة الكورة بلدة أُورِيُولة Orihuela ، فلما اختطت مُرْسِيَة سنة ٨٣١/٢١٦ أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط على يد جابر بن مالك بن لبيد عامل تدمير يومئذ نقلت القاعدة إليها ، وسميت الكورة كلها كورة مرسية . وقد استبد بأمر مرسية وكورتها المولديان العامريان خيران وزهير بعد انتشار عقد الخلافة ، ثم ضمت الكورة إلى بلنسية ، وانفصلت عنها بعد ذلك . وفى أواخر أيام الموحدين استقل بها محمد بن يوسف بن هود الملقب بالمتوكل ، وأصبحت تسمى فى النصوص الإسبانية باسم مملكة مرسية El Reino de Murcia . وقد خرجت مرسية عن يد المسلمين نهائياً فى جمادى الأولى سنة ٦٦٤/فبراير ١٢٦٦ على يد خايمه الأول ملك أرغون الملقب بالفاتح .

انظر :

MARIANO GASPAR REMIRO, *Historia de Murica Musulmana* (Zaragoza, 1905).

وفى تعليقاتنا التالية تفصيلات أخرى كثيرة عن تدمير ومرسية . (انظر فهرس الأعلام)

رَيَّة ، وتكتب أيضاً رَيُّه وهو الأصح ، يظن أن أصل اسمها Regio أى إقليم . اسم كورة من الكور الصغيرة جنوب الوادى الكبير كانت تضم قواعد كبيرة مثل أرشذونة Archidona ومالقة (انظر صفة الأندلس للرازى ، رقم ٦٩ ص ٩٨ – ٩٩) . وقد ذهب دوزى إلى أن اسم الإقليم كان قبل العرب Malacitana Regio . ولم توجد مدينة باسم رَيَّة ، ولو أن الإصطخرى أخطأ فاعتبرها مدينة ، وذهب ابن خلدون إلى أن رَيَّة اسم لمالَقَة . والثابت – بشهادة ابن القوطية – أن رية اسم كورة عاصمتها أرشذونة . وقد اختفت الكورة فى عهد الطوائف ، ولا وجود لها فى « التعليق المنتقى » .

انظر البحث الطويل عنها فى أبحاث دوزى ، حـ ١ ص ٣١٧ – ٣٢٤ .

(١) جعلت هذا الخبر فى فقرات متميزة للنص على أهميته . وقد نقله ابن الأبار عن أبى =

وطالعتا موسى بن نصير و بَلْج بن بِشْر هما اللتان تعرفان بالأندلس بالجندَيْن .

ثم لم يلبث أبو الخَطّار — مع مكانه من السداد — أن تعصَّب لليمانية وفضَّلهم على المُضَرية ، فآل به الأمر إلى الخلع والفرار إلى جهة باجة فى غرب الأندلس فى قصص طويلة ، وذلك سنة ثمان وعشرين ومائة ، بعد أربع سنين وتسعة أشهر من ولايته ؛ وقيل : كانت ولايته سنة اثنتين وعشرين . ومن شعره :

أفَأْتُم بنى مروانَ قيساً دِماءنا ‏ ‏ ‏ وفى الله ـ إن لم تُنصفوا ـ حَكَمٌ عَدْلُ

(ويُروى : أفاءت بنو مروان ، والأول أَوْلى)

كأنكمُ لم تشهدوا مَرْجَ راهِطٍ ‏ ‏ ‏ ولم تعلَمُوا مَن كان ثَمَّ له الفضلُ

وقَيناكُمُ حَــرَّ القَنا بِنُحورِنا ‏ ‏ ‏ وليس لكم خيل ـ سوانا ولا رَجْلُ

/فلما بلغتمْ نَيْلَ ما قد أردتمُ ‏ ‏ ‏ وطاب لكم منا المشاربُ والأكلُ [١٩ – ١]

تعاميتمُ عنا بعيْن جَلِيَّـــةٍ ‏ ‏ ‏ وأنتمْ كذا ما قد عَلِمنا لها فِعْلُ

فلا تأمَنوا إن دارَتِ الحربُ دورةً ‏ ‏ ‏ وزَلَّتْ عنِ المِرقاةِ بالقَدمِ النَّعْلُ

فينتقضُ الحَبْلُ الذى قد فتَلْتُمُ ‏ ‏ ‏ ألا ربما يُلْوَى فينتقضُ الحبلُ

قال أبو الخطار هذا الشعر ، لأن هشام بن عبد الملك ولَّى عُبيدةَ بنَ عبد الرحمن — ابن أخى أبى الأعور السُّلَمى صاحبَ خيل معاوية بصفين — إفريقيةَ ، وصرف بِشْر بن حنظلة الكلبى ، فوَجِدت لذلك اليمانية . ويقال إنه قدم القَيْرَوان — ولم يكن عليها إذ ذاك سور[1] — فأتى بشر بن صفوان قد تهيأ

= مروان بن حيان كما نقله أيضاً ابن الخطيب فى الإحاطة (بتحقيق محمد عبد الله عنان ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٥) ص ١٠٩ ، وابن عذارى فى البيان المغرب ، ٢/٣٣ . وقد تصرف فيه كل منهم بحسب منهجه فى كتابه ، وأعتقد أن الصورة التى أورده فيها ابن الأبار من أصح للصور التى ورد فيها . وقد ناقشنا هذا الموضوع وبسطنا القول فيه فى كتابنا « فجر الأندلس » .

(١) وردت هذه العبارة التى وضعناها بين شرطتين فى الهامش بخط مختلف .

obeikandi.com

لشهود الجمعة ولبس ثيابه ، فقيل له : « هذا الأمير قد قدم ! » ، فقال : « لا حول ولا قوة إلا بالله ! هكذا تقوم الساعة » ، فما حملته رجلاه . ودخل عبيدة بن عبد الرحمن فجَمَّع بالناس (١) .

وقيل إنه لما تتابع ولاةُ إفريقية والأندلس من قيس ، قال أبو الخطار هذا الشعر يعرِّض فيه بيوم مرج راهط ، وما كان من بلاء كَلْبٍ فيه مع مروان ابن الحكم ، وقيام القيسية مع الضحاك بن قيس الفِهْرِىّ أمير عبد الله بن الزبير . فلما بلغ الشعرُ هشامَ بنَ عبد الملك سأل عن قائله فأُعلِم أنه رجل من كلب ، وكان هشام قد وَلَّى إفريقيةَ حنظلَةَ بن صفوان الكلبي أخا بِشْر المذكور ، فكتب إليه يأمره أن يولى أبا الخطار الأندلسَ . وهو الرابع عشر من ولاتها ، ثم ولى بعده ثوابة بن سلامة الجذامى ، ثم يوسف بن عبد الرحمن الفهرى — وكان خَلْعُهُ بعبد الرحمن بن معاوية . وأنشد الحُمَيْدى فى تاريخه الشِّعرَ ، وقال فيه : « أفادت بنو مروان » ، وقال : « إن لم تعدلوا » ، وقال : « وقينا كم حد القنا بسيوفنا » ؛ وقال فى البيت الرابع وما بعده :

فلما رأيتم واقدَ الحرب قد خبا ... وطاب لكم فيها المشارب والأكل
تغافلتمُ عنا كأن لم نكن لكم ... صديقاً ، وأنتم ما علمت لها فُعْلُ
فلا تعجلوا إن دارت الحربُ دورةً ... وزلَّتْ عن المِهْواةِ بالقدمِ النعلُ

/ ولم ينشد البيت الأخير [١٦ - ب]

وقال أبو الخطار أيضا يخاطب الصميل بن حاتم الكلابى ، رئيسَ المضرية ورأسَ المتعصبين معها على اليمانية فى ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى :

(١) الخبر وارد بتفصيل فى البيان المغرب لابن عذارى (١/٥٠) ونص الفقرة الأخيرة منه هناك : ودخل عبيدة فأخذ عمال بِشر وأصحابه فحبسهم وأغرمهم ، وعذب بعضهم .

وكان دخول عبيدة بن عبد الرحمن القيروان فى ربيع الأول ١١٠ هـ / يونيو ٧٢٨ .

إن ابنَ بكرٍ كفانى كلَّ معضلةٍ وحَطَّ عن غاربى ما كان يؤذينى
إذا اتخذتَ صديقاً أو هممتَ بهِ فاعمد لذى حَسَبٍ إن شئتَ أو دينِ
ما يقدر الله فى مالى وفى ولدى لا بد يدركنى لو كنت بالصين[1]

وأنشد له الحميدى :

فليت ابنَ حوّاسٍ يُخَبَّر أننى سميتُ به سَعْيَ امرئٍ غيرِ غافِلِ
قتلتُ به تسعين تحسب أنهمْ جذوعُ نخيلٍ صُرِّعتْ بالمسايلِ
ولو كانتِ الموتى تباع اشتريتُه بكفّى ، وما استثنيتُ منها أناملى

وحكى أبو على الحسين بن أبى سعيد عبد الرحمن بن عبيد القيروانى المعروف بالوكيل فى « الكتاب المُعْرب عن أخبار المغرب » من تأليفه ، أن عُبيدةَ بن عبد الرحمن لما قدم القَيْروان أخذ عمالَ بشر بن صفوان وأصحابَه فحبسهم وأغْرَمهم وتحامل عليهم . وكان فيهم أبو الخطار ، فصنع هذه الأبيات وبعث بها إلى الأبرش الكلبى ، فدخل بها على هشام بن عبد الملك بن مروان فأنشدها ، فغضب هشام . وكان ذلك سبب عزل عبيدة عن إفريقية . قال أبو على : وهذا الشعر مشهور بالمشرق كشهرته بالمغرب ؛ ذكره صاحب « كتاب الخصال » وجاء به بعض المؤلفين فى اختياره ، وأتى به أبو الحسن المدائنى ، وقال : لما أنشده سعيدُ بن الوليد الأبرشُ الكلبى هشامَ بن عبد الملك غضب وشتم عبيدة وقال : « قبح الله ابن النصرانية ! » وعزله .

---

(١) الأصل :

ما يقدر الله فى مالى لابد يدركنى وفى ولدى لوكنتُ فى الصين

وورد بصورته الصحيحة التى يستقيم بها الوزن فى الهامش .

١٧ — الصُّمَيْل بن حاتم بن شَمِر بن ذى الجَوْشَن الكِلابى الضِّبابى ، أبو جَوْشَن

كان جده شَمِر من أشراف عرب الكوفة ، وهو أحد قَتَلةِ الحسين بن على رضى الله عنهما ، والذى قدم برأسه على يزيد بن معاوية . وقَتَل المختارُ بعد ذلك — حين قام ثائراً بقتلةِ الحسين — جماعةً منهم ، فهرب شَمِر بولده وعياله ولحق بالشام فأقام بها فى عز ومنعة .

وقد قيل إن المختارَ قتل شَمِراً وفرّ ولدُه / إلى أن خرج كلثوم بن عياض [٢٠-١] القُشيرى غازياً إلى المغرب ، فكان الصُّمَيْل ممن ضُرب عليه البَعثُ فى أشراف أهل الشام ، ودخل الأندلسَ فى طاعة بَلْج بن بشر فَلِّ أصحاب كلثوم[1] .

---

(١) كان هشام بن عبد الملك قد ولى كلثوم بن عياض القشيرى على إفريقية سنة ١٢٣/ ٧٤٠ — ٧٤١ بعد عبيد الله بن الحبحاب ليتلافى أمرها بعد انهزام قوات ابن الحبحاب أمام ميسرة المدغرى فى معركة الأشراف وإقدام جند إفريقية على عزله . وقد دخل كلثوم إفريقية فى جيش عدته ثلاثون ألفاً ، يقال إن عشرة آلاف منهم كانوا من صلب بنى أمية ، وعشرين ألفاً من سائر العرب . « وكان مع كلثوم ابن أخيه بلج بن بشر . وقد انهزم هذا الجيش الكبير أمام خالد بن حميد الزناتى رئيس البربر الذى خلف ميسرة المدغرى . وقتل كلثوم بن عياض ومنافسه حبيب بن أبى عبدة وسليمان بن أبى المهاجر ووجوه العرب . فكانت هزيمة أهل الشام إلى الأندلس، وهزيمة أهل مصر وإفريقية إلى إفريقية » .

وقد نجا بلج بن بشر من المعركة ولجأ إلى سبتة فتحصن بها من البربر ، وظل هناك مع من معه من العرب حتى ساء حالهم واستنجدوا بعبد الملك بن قطن عامل الأندلس ، فأذن لهم بعد أن كادوا يهلكون جوعاً ، واشترط عليهم أن يخرجوا من الأندلس بعد أن يفرغوا من حرب البربر الثائرين عليه فى الأندلس . ولكنهم لم يخرجوا ، وانتهى الأمر بتولى بلج بن بشر أمر الأندلس .

انظر : البيان المغرب ١/ ٥٥ — ٥٦ .

وكان شجاعاً ، نجداً ، جواداً ، كريماً . وهو الذى قام بأمر المضرية فى الأندلس عند ما أظهر أبو الخطار الحسامُ بن ضرار الكلبى العصبيةَ لليمانية ، إلا أنه كان رجلا أميًّا لا يقرأ ولا يكتب ، وكانت له فى قلب الدول وتدبير الحروب أخبار مشهورة .

وحكى أبو بكر بن القوطية فى تاريخه أنه مر بمعلِّم يتلو ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ فوقف يتفهم ، وكان أميًّا لا يقرأ ، ونادى المعلمَ : « يا هناه ! كذا نزلتْ هذه الآية ؟ » ، قال : « نعم » ، قال : « فأرى والله أن سيشركنا فى هذا الأمر العبيدُ والأراذلُ والسَّفِلةُ » .

وغلب على أمر يوسف بن عبد الرحمن الفهرى فى ولايته ، وكان معه فى حربه لعبد الرحمن بن معاوية بعد أن ولاه مدينة سَرَقُسْطَة ثم طُلَيْطِلَة ؛ وهو القائل عند ما أغار الطائيُّون على داره بشَقُنْدَة يوم المُصَارة عند انهزام الفهرى واستخلاف عبد الرحمن :

ألا إن مالى عند طىٍّ وديعةٌ ولا بدَّ يوماً أن تُرَدَّ الودائعُ
سَلُوا يَمَناً عن فِعل رُمحى ومنصلى فإن سكتوا أثنتْ علىَّ الوقائعُ

أنشدها أبو بكر الرازى فى تاريخه .

وتوفى الصُّمَيْل فى سجن عبد الرحمن بن معاوية سنة اثنتين وأربعين ومائة .

---

١٨ — الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمى ، أبو جعفر

كان ممن سعى فى القيام بدعوة بنى العباس مع أبى مسلم وحارب معه [عبد الله بن][1] على ، وكان مع أبى جعفر المنصور فى حصار ابن هُبَيْرة

(١) أكلت العبارة على هذا النحو ليتصل السياق . ولم أجد اسم الأغلب بين أنصار أبى مسلم —

وفى قتل أبى مسلم ، ويقال إنه الذى ضربه فأطار يده ، ثم تولى حز رأسه(١) ؛ ووجَّهه أبو جعفر المنصور مع محمد بن الأشعث بن عقبة الخزاعى إلى قتال البربر . وهو أول [قدومه إلى](٢) إفريقية ، وكانَ عاملَ مصر ، وذلك فى سنة أربع وأربعين ومائة . فخرج فى أربعين ألفاً عليهم مائة وثمانية وعشرون قائداً من تحت يد ابن الأشعث ، منهم ثلاثون ألفاً من خراسان وعشرة آلاف من الشام — وقيل ألفان فقط من الشام . وقال المنصور : إن حدث به حدث كان الأغلبُ أميرَهم بعده . فولَىَ طُبْنَةَ / إلى أن خرج ابنُ الأشعث من القَيْرَوان فى شهر [٢٠-ب] ربيع الأول سنة ثمان وأربعين — وكان قد بنى سور القيروان — فبعث أبو جعفر إلى الأغلب عهده بولاية القيروان ، فاستقامت له الأمور . ثم اضطربت بعقب ذلك لخروج أبى قُرَّة البربرى عليه واشتغاله بحربه ، [وخرج](٣) الحسن

الخراسانى ورجاله . وقد أورد الطبرى (طبعة المطبعة التجارية ، القاهرة ١٩٣٩) ج ٦ ص ٥٣ قائمة بأصحاب أبى مسلم وقواده لم أجد من بينهم اسم الأغلب ، ولكنى وجدت مقاتل بن حكيم العكى ، وهو أبو محمد بن مقاتل العكى الذى تولى إفريقية قبل إبراهيم بن الأغلب ، فلعل ذلك هو السبب فى قول المؤرخين أن الأغلب كان من رجال أبى مسلم . وربما كان من صغار رجاله فلم يذكر ضمن القواد والنقباء .

(١) لا وجود لهذا عند الطبرى ، وهو أوسع مرجع لدينا عن قتل أبى مسلم : ١٣٧/٦ .

(٢) عبارة « وهو أول [...] إفريقية » قلقة هنا ، وقد قومناها على هذا النحو للسياق . وعلى أى حال فهاك رواية ابن عذارى فى هذا الموضع ، ويبدو أنه يأخذ من نفس المرجع الذى يعتمد عليه ابن الأبار هنا : « ذكر ولاية محمد بن الأشعث الخزاعى على إفريقية : لما غلَبت الصُّفْرية على إفريقية بعد أن قَتَلتْ ورفجومةُ مَن قتلت من قريش وغيرهم ، خرج جماعة من عربها إلى المنصور يستنصرون به على البربر ، ويصفون له ما نالهم منهم . فولى أبو جعفر ابنَ الأشعث مصر ، فوجه أبا الأحوص ، فهزمته البربر ، كما تقدم ، فكتب أبو جعفر إلى ابن الأشعث أن يسير بنفسه ، فخرج إلى إفريقية فى أربعين ألف . . الخ » . البيان ٧٢/١ (وكان ذلك سنة ٧٦١/١٤٤ - ٧٦٢) .

(٣) أضفت هذه الكلمة للسياق .

obeikandi.com

ابن حرب الكِندى عليه ، وخاطب القواد مُضَرِّياً[1] فلحق به منهم جماعةٌ وهو بتونس ، فأقبل إلى القيروان فدخلها . وبلغ الخبرُ الأغلبَ فأقبل فى عدة يسيرة ممن أطاعه ، وكتب إلى الحسن :

ألا مَن مُبلِغٌ عنى مقالا يسير به إلى الحسن بن حربِ
فإنَّ البَغْىَ أبعدُه وبالٌ عليك وقربه لك شر قربِ
فإن لم تدْعُنى لتنالَ سِلْماً وعفوى فادْنُ من طَعْنى وضربى[2]

فقصد الحسنُ الأغلبَ ، فاقتتلوا قتالا شديداً انهزم الحسنُ عنه وكرَّ راجعاً إلى تونس ، ودخل الأغلبُ القَيْرَوان . ثم زحف الحسنُ إليه ثانيةً ، وخرج الأغلبُ من « باب أصْرَم »[3] فتواقف الفريقان ، فبرز الأغلب وقال :

---

(١) الأصل : مضربا ، وقد صوبتها هكذا للسياق ، وكذلك فعل مولر . وإليك توضيحاً لهذه الأحداث نقلا عن ابن عذارى (البيان : ١/ ٧٤) :

« وفى سنة ١٥٠ ثار الحسن بن حرب الكندى بالقيروان على الأغلب بن سالم ، وسبب ذلك أن أبا قرة الصفرى خرج فى جمع كبير من البربر ، فسار إليه الأغلب فى عامة القواد الذين معه ، وخلف على القيروان سالم بن سوادة . فلما علم أبوقرة أن الأغلب قرُب منه هرب ، وتفرق أصحابه ، وقدم الأغلب الزاب ، وعزم على الرحيل منه إلى تِلمْسان ، قاعدة زناتة ، ثم إلى طنجة . فكرهَ الجندُ المسير معه ، وقالوا : « قد هرب أبوقرة الذى خرجنا إليه » وجعلوا يتسللون عنه إلى القيروان ، فلم يبق معه إلا نفر يسير من وجوههم . وكان الحسن بن حرب بتونس ، فلما خرج الأغلب يريد أبا قرة ، كاتَبَ جميعَ القواد ، فلحق به بعضهم ، وأقبل معهم إلى القيروان ، فدخلها ، وأخذ سالم بن سوادة عاملَها ، فحبسه . وبلغ الخبرُ الأغلبَ ، فأقبل فى عدة يسيرة ، وكتب إليه يعرفه بفضل الطاعة ووبال المعصية ، فأعاد الجوابَ إلى الأغلب ، وفى آخره :

ألا قولوا لأغلبَ غيرَ سوءٍ مُغَلغلةً عن الحسنِ بن حربِ
بأن البغى مرتعـــه وخيم عليك ، وقربه لك شر قرب
فإن لم تنثن لتنـــال سلمى وعفوى، فادن من طعنى وضربى

(٢) واضح أن الأبيات الواردة فى الهامش السابق رد على هذه الأبيات . ويلاحظ القارئ تشابه شعر الأغلب وشعر الحسن بن حرب على هاتين الروايتين . والحقيقة أن ابن عذارى أخطأ فجعل أبيات ابن الأغلب للحسن بن حرب ، أما أبيات هذا فترد فى ترجمته التالية .

(٣) من أبواب القيروان المعروفة .

أغدو إلى الله بأمرٍ يَرْضاهُ [لا خير فى ... ...]
إن يَهْوَنِي الموتُ ، فإنى أهواه كلُّ امرئٍ يلقى يوماً [...][1]

ثم شدَّ على الميمنة فى أصحابه ، فكشفها ، وانصرف إلى موقفه وهو يقول :

أضربُ فى القومِ ، ومثلى يضربُ فإن [يكن حرْباً] فإنى الأغلبُ
لا أجزعُ اليومَ ولا أكذبُ[2]

ثم شدَّ على الميسرة ، ففعل مثلَ فِعله فى الميمنة ، وانصرف وهو يقول :

لم يبقَ إلا القلبُ أو أموتُ إنْ تَحْم لى الحربُ فقد حَمِيتُ
وإن تولَّيْتُ فما بَقيتُ

ثم حمل على القلب ، فلم يُثْنَ حَدُّه ، حتى قُتل بسهم رُمى به ، وذلك فى شعبان سنة خمس ومائة .

وبلغ المنصورَ موتُه فقال : « إن سيفى بالمغرب قد انقطع ، فإن دفع الله عن المغرب بريح دولتنا وإلا فلا مغرب » . وقال الحكم بن ثابت السعدى من ولد سلامة بن جندل يرثى الأغلب :

لقد أفسد الموتُ الحياةَ بأغلبٍ غداةَ غدا للموت فى الحرب مُعْلِماَ
/ تبدَّتْ له أم المنايا فأقصدتْ [فتى حين] يلقى الموتَ فى الحرب صَمَّماَ[3] [٢١-١]
أخا غزواتٍ ما تزال جيادُهُ تُصَبِّح عنه غارةً حيث يمَّما
أتته المنايا فى القنا فاخترمْنَهُ وغادَرْنَه فى مُلتقى الخيل مسْلَما
كأن على أثوابه من دمائه عَبيطاً ، وبالخدَّيْن والنَّحْرِ عَنْدَما
فبَاتَ شهيداً نال أكرمَ ميتةٍ ولم يَبْغِ عُمراً أن يطول ويسقُما

(١) وردت هذه الأبيات فى سياق النثر ، ولم ينتبه الناسخ إلى أنها شعر .
(٢) الشطر الأخير من هذا الرجز مكسور . وقد أضفت ما بين حاصرتين فى الشطر الثانى للسياق والوزن ، وظاهر أنه يخاطب الحسن بن حرب ، ومن هنا أخذت عبارة « يكن حربا » .
(٣) ورد الشطر ناقصا فى الأصل فأكملته بما يقيم الوزن .

١٩ — الحسن بن حرب الكندى

كان بتونس ، فقام على الأغلب بن سالم — حسبما تقدم خبره — وخالفه وسار إلى القيروان فلم يدفعه أحد عنها حتى دخلها . و بلغ أبا جعفر المنصور تنازعهما ، فكتب إلى الحسن بن حرب يحضه على الطاعة . وكان من كبار القواد وأبطال الفرسان بإفريقية ؛ وهو القائل يجيب الأغلب عن أبياته المذكورة قبلُ :

ألا قولا لأغلبَ غيرَ سِرٍّ مُغلغَلة عن الحسن بن حربِ
بأنَّ الموتَ بينكمُ و بينى وكأسُ الموت أكره كلِّ شربِ
رويدكمُ ، فيومكمُ ويومى — وإن بَعُدا — مصيرهما لقُربِ

ثم تقاتلا بعد ذلك ، فقُتل الأغلبُ وصاح صائح : « مات الأمير ! » . وكان سالم بن سوادة التميمى فى الميمنة ، وهو ابن عم الأغلب ، فقال : « لا أنظر إلى الدنيا بعد اليوم » . ووقع فى عسكر الحسن الصياح : « مات الأمير ! » فظُنَّ أن الحسن هو المقتول ، فولوا منهزمين ، وركبهم سالمُ بن سوادة والمخارق بن غفار الطائى بالسيف ، فقتل من أصحاب الحسن مقتلة عظيمة ، واتُّبع هو فقُتل بتونس . ويقال إنه أتوا به مقتولا إلى القيروان ، فصلبه المخارق يومَ السبت آخر يوم من شعبان سنة خمسين ومائة .

٢٠ — يزيد بن حاتم بن قَبيصة بن المهلب بن أبى صُفرة الأزدى العتكى ، أبو خالد

وَلى إفريقية فى خلافة أبى جعفر المنصور ، فأصلحها ورتَّب أمر القَيْرَوان

وجدَّد أمر المسجد / الجامع . وكان غايةً في الجود مُمَدَّحاً ، كثيرَ الشبه بجده [٢١ - ب] المُهَلَّب في حروبه ودهائه وكرمه وسخائه ، خاصًّا بأبي جعفر المنصور ، وكان لا يُحجب عنه . ووَلِيَ ولاياتٍ كثيرةً قبل قدومه إلى المغرب ، منها : أرمينية ، والسِّند ، ومصر ، وأذربيجان وغير ذلك .

وقدم إفْرِيقِيَّةَ من مصر — وكان والياً عليها — في ذي الحجة سنة أربع وأربعين ومائة إلى سنة اثنتين وخمسين[1] . وحُكي عنه [أنه] قال : لما ولاني أبو جعفر دخلتُ عليه فقال لي : « يا [أبا] خالد ، بادر النيل قبل خروج الرايات الصُّفْر وأصحاب الدواب البُتْر »[2] .

---

(١) تولى يزيد بن حاتم مصر من يوم الاثنين ١٥ ذي قعدة ١٤٤/١٧ مارس ٧٦٢ إلى يوم السبت ١٨ ربيع الآخر ١٥٢/٣ مايو ٧٧٠ .

انظر : أبو المحاسن بن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة (طبعة دار الكتب بالقاهرة) جـ ٢ (١٩٣٠) ص ١ وما يليها .

(٢) المراد بهذه الإشارة هنا العلويون ، وكان أبو جعفر المنصور مهموماً بأمرهم خلافتَه كلَّها ، وعلى رغم ما أنزل بهم من مقاتل وبأنصارهم من أذى وتعذيب فقد ظل متخوفاً منهم إلى آخر أيامه . وكان أنصار العلويين في مصر كثيرين ، فكان المنصور يخشى أن يثبوا بها ، فبادر إلى عزل حُمَيد بن قحطبة وأرسل يزيد بن حاتم ، وكان من أقدر ولاته وأقربهم إلى نفسه . وقد كان أبو جعفر محقاً في تخوفه ، فنحن نقرأ عند أبي المحاسن : « وفي أيام يزيد بن حاتم المذكور ظهرت بمصر دعوة بني الحسن بن علي بن أبي طالب ، وتكلم بها الناس ، وبايع الكثير منهم لبني الحسن في الباطن ، وماجت الناس بمصر ، وكاد أمر بني الحسن أن يتم ، والبيعة كانت باسم علي بن محمد بن عبد الله (بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب . وعلي هذا هو ابن محمد النفس الزكية الذي قتله المنصور في المدينة وأخاه إبراهيم في البصرة سنة ١٤٥) .

وبينما الناس في ذلك قدم البريد برأس إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب في ذي الحجة سنة خمس وأربعين ومائة ، فنصب في المسجد أياما » . (أبو المحاسن ١/٢ - ٢) .

وقد بلغ من خوف يزيد بن حاتم من دعاة العلوية أن منع أهل مصر من الحج سنة ١٤٥ هـ . ولم يوفق يزيد بن حاتم في القضاء على دعوة العلوية في مصر ، فعزله المنصور سنة ١٥٢ وأقام مكانه عبد الله بن عبد الرحمن حفيد معاوية بن حديج زعيم العثمانية في مصر وعدو علي بن أبي طالب أثناء الصراع بينه وبين معاوية بن أبي سفيان .

ثم استقدمه — بعد أن قُتل عمر بن حفص المُهَلَّبى — فولاه إفريقية والمغرب وشيَّعه إلى فلسطين ، فحسده الأمراء والرؤساء . وكان المنصور يقول : « ما أخطأت فى شىء من تدبيرى إلا فى ثلاثة أشياء : تشييع يزيد بن حاتم . . أرأيت لو نكث ، أكان يحسن بى أن أرجع ، أو كان يحسن بى أن ألقى الجيش بنفسى ؟ ويومَ الراوندية[1] وقوفى على باب الذهب . . أرأيت لو أن رجلا رمانى بسهم ، أليس دمى كان يذهب ضياعاً ؟ وقتلى أبا مسلم وأنا فى الخرق[2] ، ومعه أهل خراسان ثلاثون ألفاً يعبدونه من دون الله » .

وفى يزيد هذا يقول ربيعة بن ثابت الرَّقِّى من بنى أسد — وقد وفد عليه — أبياته السائرة فى الناس إلى اليوم :

لَشَتَّانَ ما بين اليزيدَين فى الندى يزيدُ سُلَيْمٍ والأغرِّ بنِ حاتمِ
يزيدُ سُلَيمٍ سالَمَ المالَ ، والفتى أخو الأزْدِ للأموال غير مُسالِمِ
فَهَمُّ الفتى الأزدىِّ إتلافُ مالِه وهمُّ الفتى القيسىِّ جمعُ الدراهمِ
فلا يحسب التِّمتام أنى هَجَوْتُه ولكننى فضَّلتُ أهلَ المكارمِ

يريد بالتِّمتام — وهو المتردد فى التاء — يزيدَ بن أُسَيْد السلمى . سمّاه المبرد ، وهى من قصيدة حسنة يقول فيها :

أبا خالدٍ أنتَ المنوَّهُ باسمِهِ إذا نزلتْ بالناس إحدى العظائمِ
كفيتَ بنى العباس كلَّ عظيمةٍ وكنتَ عن الإسلام خيرَ مزاحمِ

(١) الراوندية جماعة من شيعة فارس ينسبون إلى راوندقرب أصفهان ، أسرفوا فى تشيعهم لعلى بن أبى طالب حتى قالوا إن الروح التى كانت فى عيسى بن مريم حلت فيه ، ودعوا إلى تأليه الأئمة ، وذهبت جماعة منهم إلى عبادة أبى جعفر المنصور ، وقد حاربهم المنصور وقتل منهم كثيرين وحبس كثيرين أيضاً فى سجون بغداد ، فاجتمعوا فى السجن وكسروا أبوابه ، وخرجوا واتجهوا إلى قصر المنصور ، فخرج إليهم بنفسه ، فتكاثروا عليه وكادوا يقتلونه لولا أن أنقذه معن بن زائدة الشيبانى . وقد كافأه المنصور على ذلك بولاية اليمن . وإلى يومه هذا مع الراوندية يشير هنا . (راجع الطبرى ، ج ٦ ص ٣٠٧ وما بعدها)

(٢) أى وأنا فى وقت ثورة واضطراب .

ويقال إن ربيعة لما مدحه بهذه القصيدة استبطأ برَّه وصِلتَه فقال :

/ أرانى — ولا كفرانَ لله — راجعاً بخُفَّىْ حُنَيْنٍ من يزيد بن حاتم [٢٢-١]

فبلغ ذلك يزيدَ ، فدعا به وقال : « انزعوا خفيه » ، فنُزعا وهو خائف من عقوبته على ذكره خفى حنين ، فملأهما له دراهم ودنانير — وكانا كبيرين كأخفاف الجند — ثم وصله بعد ذلك بصلاتٍ جزيلة . وهذه القصة[1] شبيهة بقصة أبى العتاهية مع عمر بن العلاء[2] حين امتدحه بقصيدته التى يقول فيها :

إنى أمِنْتُ من الزمان وريْبِهِ لما عَلِقْتُ من الأمير حبالاَ
لو يستطيعُ الناسُ من إجلالهِ لحذَوْا له حُرَّ الخدودِ نعالا
ما كان هذا الجودُ حتى كنتَ يا عمرُ ، ولو يوماً تزولُ لزالا
إن المطايا تشتكيك لأنها قطعتْ إليك سَبَاسِباً ورمالا
فإذا وَرَدْنَ بنا وَرَدْنَ مُخِفَّةً وإذا صَدَرْنَ بنا صدرْنَ ثِقالا

فتأخر عنه برُّه قليلا ، فكتب إليه يستبطئه :

أصابتْ علينا جُودَكَ العينُ يا عُمَرْ وعزَّ لما نبغى التمائمُ والنشَرْ
سنَرقيك بالأشمار حتى تملَّها فإن لم تُفِقْ منها رقيناك بالسُّوَرْ

وقال أيضا :

يا ابنَ العلاء ويا ابنَ القَرْم مِرْداسِ إنى لأُطريك فى صَحْبى وجُلاَّسِى
أُثنى عليك — ولى حال تكذِّبنى فيما أقول — فأستحيى من الناس
حتى إذا قيل : ما أعطاك من صَفَدٍ ؟ طأطأتُ ، من سوء حالى عندها ، راسى

فأمر حاجبَه أن يدفع إليه المال ، وقال : « لا تدخله علىَّ فإنى أستحى منه » . ورُوى أنه وصله عليها بسبعين ألف درهم ، فحسدته الشعراء وقالوا : « لنا بباب

(١) الأصل : القصيدة .

(٢) هو عمر بن العلاء ، معتوق عمرو بن حُرَيْث (انظر : الأغانى : ٣/٤٤ و١٣٧)

الأمير أعوام نخدم الآمال ما وصلنا إلى بعض هذا » ، فاتصل ذلك به فأمر بإحضارهم وقال : « قد بلغنى الذى قلتم . وإن أحدكم يأتى فيمدحنى بالقصيدة يشبِّب فيها ، فلا يصل إلى المدح حتى تذهب لذة حلاوته ورائق طلاوته . وإن أبا العتاهية أتى فشبَّب / بأبيات يسيرة ، ثم قال : إن المطايا تشتكيك » ، وأنشد الأبيات . [٢٢ – ب]

ومن شعر يزيد بن حاتم :

ما يألف الدرهمُ المضروب خِرقَتنا إلا لَمَاماً قليـــلا ، ثم ينطلقُ
يَمُرُ مَرًّا عليها وهى تَلْفِظُـــهُ إنى امروٌ لم يُخَالِفْ خِرْقَتى الوَرِقُ[1]

وتوفى فى شهر رمضان سنة سبعين ومائة .

٢١ – الفَضْل بن رَوْح بن حاتم بن قَبِيصة بن المُهَلَّب[2]

ولاّه الرشيد إفريقيةَ ، فقدم على القيروان فى المحرم سنة سبع وسبعين ومائة ، ويقال إنه لم يَلِ إفريقيةَ أجملُ منه ومِن أبى العباس عبـد الله بن إبراهيم ابن الأغلب .

---

(١) وردت هذه الأبيات أيضاً فى البيان المغرب لابن عذارى (١/٨١)

(٢) هذا خامس رجل من آل المهلب يتولى أمر إفريقية للعباسيين . والحقيقة أنه منذ قتل الأغلب بن سالم بن عقال فى سنة ١٤٨/٧٦٥ إلى ولاية ابنه إبراهيم سنة ١٨٤/٨٠٠ ، أى إلى بدء الدولة الأغلبية ، كانت إفريقية فى يد رجال من بيت المهلب بن أبى صفرة فيما عدا فترات قصيرة جداً . وهذا البيت الذى تولى مصائر إفريقية خلال أعصب فترة مرت بتاريخها قبل الأغالبة جدير بدراسة وحده ، فقد كان رجاله عرباً خلصاً تتمثل فيهم صفات العرب الأولى فى أجلى صورها . كانوا شجعاناً كرماء ذوى ثبات وحزم وعزم ، وكانوا إلى جانب ذلك – وتلك هى الناحية السلبية من خلقهم – متهاونين لا ينظرون إلى بعيد ، ولا يفكرون فى خطة بعيدة المدى لتلافى الأخطار التى أحاطت بإفريقية على أيامهم ، إنما كانوا ينتظرون حتى تشتد الأزمة ويعظم الخطر فيهبون لدفعه فى بسالة وعزم وذكاء وحيلة ، ولم تكن تلك هى السياسة =

واستعمل على تونس المغيرةَ بن بشر بن روح ابن أخيه ، وكانت تونس نظيرة القيروان حتى إن أبا جعفر المنصور كان يقول : « ما فعلت إحدى القيروانَيْن ؟ » ، يعنى تونس .

وكان المغيرةُ غِرًّا لا تجربةَ له بالأمور ولا معرفةَ بتصاريفها ، فاستخفَّ بالجند وسار فيهم بما أنكروه ، فكتبوا إلى الفضل بذلك فلم يعزله عنهم ، فقدَّموا — فى قصة طويلة — عبدَ الله بن الجارود العبدى[1] وأخرجوا المغيرة .

وكتب ابنُ الجارود إلى الفضل : « إلى الأمير الفضل بن روح من عبد الله ابن الجارود . أما بعد ، فإنّا لم نُخرج المغيرةَ إخراجَ خلافٍ عن الطاعة ، ولكن لأحداث فيها فسادُ الدولة . فوَلِّ علينا من نرضاه ، وإلا نظرنا لأنفسنا . ووَاسِنا بالأسلاف[2] كما كانت الولاةُ تصنع بنا قبلك ، وإلا فلا طاعةَ لك علينا » . وكتب فى أسفل الكتاب :

= الكفيلة بتأمين بلد استعرب أهله وأيقظ الإسلام فيهم وعياً بعيد المدى حفزهم على طلب الحكم والرغبة فى الاستئثار به وإقامة دول عربية مستقلة . وقد قام تفكير الكثيرين منهم على مبادئ الإباضية ، وهى دعوة خارجية سياسية ترمى إلى إنكار حق الاستئثار بالحكم والخلافة على بيت معين ، وتجعل الحكم ولاية يتولاها الأصلح بتراضى المسلمين ، وتدعو من ناحية أخرى إلى التعاون والتآخى بين أفراد الجماعة الواحدة . ولم يسر زعماء الإباضية على هذه المبادئ ، وإن كان أتباعها قد طبقوها فيما بينهم وأنشأوا جماعات عربية إسلامية من التجار والزراع والصناع ، كما نرى عند إباضية جِرْبَة . وكان من الطبيعى ألا يستطيع ولاة بنى العباس من آل المهلب الثبات طويلا أمام جماعات الإباضيين ، وكان أكبر ما أضعف الولاة حرص خلفاء بنى العباس على تقصير مدد ولاتهم خوفاً من وثوبهم . وقد تبين بنو العباس خطأهم فى ذلك ، وانتهوا إلى ترك إفريقية فى يد إبراهيم بن الأغلب وأولاده تحت طاعتهم ، وبهذا بدأ عصر جديد فى التاريخ السياسى لإفريقية الإسلامية .

(١) هو عبد الله بن الجارود بن عَبْدَوَيْه . وقد وهم ناشر ابن عذارى فجعله عبد ربه .

(٢) الأسلاف هنا مصطلح خاص لم أجد له تعريفاً فيما بين يدىّ من المراجع ، ولكنى فهمت من التفصيل الطويل الذى يقدمه النويرى عما وقع بين الفضل بن روح وعبد الله بن الجارود بن عبدويه أن الأسلاف كانت معاونات مالية يرسلها الولاة إلى الظاهرين من أهل النواحى =

ألا مَن مُبلغُ الفضلَ بنَ روحٍ وصِـدقُ القولِ زَيْنٌ للرجالِ
بأنك حين وليّتَ ابنَ بِشرٍ علينا غـيرُ محمودِ الفِعالِ
فولِّ سِواهُ أو كنْ رهنَ حربٍ تَغَصُّ بها على الماء الزلالِ
وإن لم تعطنا الأسلافَ طوعاً أجبتَ لها بِكَرْهٍ بالعوالِي[1]

فأجاب الفضلُ عن ذلك يرميهم بالخلاف ، ويُؤيِسُهم من الأسلاف ، وكتب فى آخر كتابه :

[٢٣-١] أتانى عنك ما ستنالُ منهُ وبالاً إن عَصَيْتَ على العِقالِ
فإنْ تَرجعْ تنلْ سَلْماً وأمناً وإن تجمحْ فلستَ بمُستقالِ
وإنَّ لِمَنْ أطاع عليك فضلا كفضلِ يد اليمين على الشمال
ولستَ بمدرك الأسلاف حتى تناوَلَهُنَّ قسْراً بالعَوَالى

ثم بعث عبدَ الله بن يزيد المهلبى والياً وضم إليه كثيراً من أصحابه . فأخرج ابنُ الجارود جماعة يختبرون ما قَدِموا له ، ونهاهم عن الحرب . فلقوهم بسِبخَةِ تونس فقُتل عبدُ الله — فى خبر يطول ذكره — وأُسر القوادُ الذين معه . وأدى ذلك إلى محاربة الفضلِ بالقيروان ، فغُلب عليها فى جمادى الآخرة سنة ثمان وسبعين

—ورؤساء جماعاتها ليظلوا إلى جانب الولاة فى صراعهم مع الثائرين عليهم . وقد قطعها الفضل بن حاتم وواليه على تونس المغيرة بن بشر بن روح ، وهو ابن أخى الفضل .

انظر : النويرى ، نهاية الأرب ، الجزءان الخاصان بإفريقية والأندلس ، نشرهما ماريانو جاسبار ريميرو فى :

Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su Reino. Granada.

ابتداءً من العدد الرابع (المجلد الخامس) سنة ١٩١٥ . والقطعة الخاصة بالحوادث التى نشير إليها واردة فى العدد الثانى من المجلد السابع (سنة ١٩١٧) ص ١٢٧ — ١٤١ .

وسنشير إلى هذا المرجع من الآن فصاعداً بعبارة : نهاية الأرب للنويرى .

(١) الأصل : بالعوال . والعوالى هى السيوف .

ومائة ، وسُيِّر فى أهل بيته ، ثم استُرجع من طريقه وهو متوجه إلى قابس ، فحُبس مع رَجُلين من أصحابه ، ثم دخل عليه الجند فقتلوه فى محبسه . ومن شعر الفضل :

ومارَسْتُ هذا الدهرَ خمسين حجةً ... ونِصفاً أُرَجِّى قابِلاً بعدَ قابلِ
فلا أنا فى الدنيا بلغتُ جسيمَها ... ولا فى الذى أهوَى كَدَحْتُ بطائل
وقد أشْرَعَتْ فينا المنايا أكفَّها ... وأيقنتُ أنِّى رهنُ موتٍ مُعاجل

٢٢ — سعيد بن يزيد بن حاتم المهلبى

لما عَظُم على الفضل بن روح أمرُ ابنِ الجارود وخروجه عليه بتونس وزحْفه إليه ، جمع أهل بيته وقال : « ما ترون فى هذا الأمر الذى لا يَخُصُّنى دونكم ؟ » فكثرت الآراء ، فقال ابن عمه سعيد : « أطِعْنى اليومَ واعصَنى فيما يستأنف . سُدَّ أبوابَ المدينةِ كلَّها إلا باباً واحداً ، ونُدخل ما يحتاج إليه الحصارُ سنةً . فوالله لكأنى أنظُر — إن لم تفعلْ ذلك — قد دُخِل عليك من آمَنِها عندَك » . وقال فى ذلك يخاطب الفضل :

أرى الحربَ قد مدتْ إلينا بِساقِها ... وقلبُك يقظانٌ شبيهٌ بنائمِ
فخذ لِنُهود الحرب أهبةَ يومِها ... وشمِّرْ لها الأذيالَ قبلَ التنادم
فإن كنتَ تَحمى الغَرْبَ فاشدُدْ لها القُوَى ... تنلْ ظفراً ، أو تاقَ موتَ الأكارم [٢٣-٣]
فليس يُريدُ القومُ إلا نفوسَنا ... أو النَّفْىَ عنها يا ابنَ روحٍ بن حاتم

وقال أيضا :

ألا قُلْ لفضلٍ إنَّنى لك ناصحٌ فلا تسمعَنْ مما يُشير ابنُ واقدِ[1]
فإنك إن تسمعْ لأقواله تَعُدْ إلى أسَدٍ فى كُبَّةِ الخيلِ لا بِدِ
ستذكر قولى حينَ ليس بنافعٍ إذا شَقَّتِ الأرماحُ نحرَ القلائدِ

فخالفه الفضلُ فكان ما تقدم من أمره .

٢٣ — أخوه عبد الله بن يزيد بن حاتم

كان مع ابن عمه الفضل بن روح بن حاتم فى حروبه بإفريقية ، ثم قُرِفَ عنده بمالأة عدوه الخارج عليه ابنِ الجارود المعروف بعَبْدُويَه ، فنغل صدرُ الفضلِ عليه حتى كتب إليه :

أرى ألْسُنَ الحسادِ فيك كأنها سهامٌ تَهَاوى من قِسِيٍّ نِصالِ

---

(١) لم أستطع التعرف على ابن واقد هذا ، ولكن يغلب على ظنى أن المراد به محمد بن يزيد الفارسى ، وكان أول الأمر من رجال الفضل بن روح بن حاتم ، وكان سعيد بن يزيد بن حاتم يشك فيه ويحذر عمه الفضل منه . وقد كان اختلاف آراء رجال الفضل سبب ضياع أمره ، وقد أشار ابن عذارى إلى ذلك بقوله بعد أن ذكر القتال الأول بين الفضل وابن الجارود وحصار هذا الأخير للقيروان : « فاجتمع الفضل مع بنى عمه وخاصته ، وتشاور معهم فى أمره فاضطرب الأمر عليه ، ولم يصح له أمر » . وقد انتهى الأمر بدخول ابن الجارود القيروان واستيلائه على الأمر ، ثم أخرج الفضل وأصحابه فى حراسة نفر من رجاله ليخرجوه من حدود إفريقية ، ولكن ابن الجارود قتله بعد ذلك فى شعبان سنة ١٧٨ / أكتوبر ٧٩٤ (ابن عذارى : ١/٨٨ — ٨٩) . وقبيل قتله حاول محمد بن يزيد الفارسى (وأظن أنه ابن واقد) الدفاع عن نفسه ، وأشار على رجال ابن الجارود بألا يقتلوه ، فلم يسمعوا له . (النويرى ١٢٧ — ١٢٩) .

يقولون قد كاتبتَ عَبْدُوىَ[1] فى التى ... إذا نالها أولئكَ شرٌّ وبالِ

وقالوا وعدتَ القومَ عندَ لقائهم ... رجوعاً عن الهَيْجا بغير قتال

وليس الذى مَنّاكَ عَبْدُوىُ كائناً ... فدعْهُ ولا تَركَنْ لقولِ ضلال

ألا إننى لم أمسِ فيكَ مُصَدِّقاً ... لأقوالهم ، والصدقُ خيرُ مقال

فلما وردت الأبيات على عبد الله علم أنه اتهمه ، فأجابه بقوله :

لَعَمْرُكَ لولا ما اتَّهمتَ لما أتَتْ ... قوارضُ أبداهُنَّ شَرُّ مقالِ

أظنَّ ابنُ روحٍ أننى كنتُ قاطعاً ... يمينى التى أسطو بها بشمالى[2]

وهَبْنى تناولتُ التى كنتَ خِفْتَها ... فكيف اعتذارى فيك بعد فِعالى[3]

فلا تحسَبَنِّى مُسلِماً إن لقيتهمْ ... لأسيافهم ظهرى بغير قتال

فقال الفضل عند قراءة جوابه : « لو كان حسادنا يتركون البَغْىَ على حال لتركوه على مثل حالنا هذه » . ثم أخرجه إلى قتال عَبْدُويَه بن الجارود فهزمه عبدُ الله بن يزيد ، ثم عاوده الحرب فهزمه عبدُويَه / وانصرف عبد الله إلى [٢٤ - أ]

---

(١) المراد هنا عبد الله بن الجارود بن عَبدُويَه الذى أشرنا إليه ، وقد كان عدوَّ الفضل ابن روح وزعيم الخارجين عليه ، وتمكن من قتله وإخراج بقية بنى المهلب من إفريقية وتولاها سبعة أشهر انتهت فى ربيع الآخر سنة ١٧٩/ يونيو ٧٩٥ بقدوم هرثمة بن أعين أميراً على إفريقية من قبل الرشيد . وقد قص النويرى أعمال ابن الجارود إلى خروجه من إفريقية بتفصيل (١٢٧ - ١٣١) .

هذا وضبط اسم عَبدُوى على هذه الصورة فى شعر الفضل وابن عمه عبد الله يدل دلالة واضحة على أن الاسم كان ينطق عَبدُويَه متابعة للنطق الفارسى ، لا عَبْدَوَيْه كما تعودنا أن نقرأ . وهذا يؤيد ما ذهب إليه المستشرق إينو ليتمان من أن الأسماء التى تنتهى بـ « ويه » — مثل سيبويه — ينبغى أن تنطق سِيبُويَه ونفطُويَه وخالُويَه . وهكذا كان العرب ينطقونها كما ترى فى هذا الشعر .

(٢) فى الأصل : بشمال .

(٣) فى الأصل : بفعال .

obeikandl.com

القيروان مفلولاً ، فكان مع ابن عمه الفضل إلى أن تكلَّب عليه ابنُ الجارود ، ثم قتله بعد أن استرجعه من طريقه ، وأطلق عبد الله بن يزيد وأمره وأخاه المهلب بن يزيد ونصر بن حبيب وجماعتهم بالتجهز والخروج من إفريقية ، فخرجوا إلى المشرق .

٢٤ — سليمان بن حميد الغافقى ، أبو داوود[1]

فارس العرب قاطبة بالمغرب فى عصره ، وأحسن الناس لسانا ، وأبلغهم إلى معرفةٍ بأيامِ العربِ وأخبارِها ، وروايةٍ لوقائعها وأشعارها ، مع دعابة كانت فيه وعبثٍ لا يدعه ؛ حُملتْ عنه فى ذلك نوادر مستطرفة وحكايات مستملحة .

وخافه عبدُ الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى فسجنه وأخاه محمداً ، ولم يكن بِدُونِه . وكان محمد — وهو أكبر من سليمان — والياً على الأُرْبُس ، فثار على عبد الرحمن بن حبيب . وسرحهما إلياس بن حبيب — حين قتل أخاه عبدَ الرحمن[2] — ووَلىَ إفريقيةَ بعده ، واستعان بهما فى ذلك وعاش

---

(١) فرغ ابن الأبار بعد الترجمة لعبد الله بن يزيد بن حاتم من أمراء العصر الأول فى المغرب والأندلس الذين روى لهم شعر ، وبدأ بعد ذلك بالترجمة لمن عاصرهم من وجوه الناس ، ممن أثر عنه شعر ، وبدأ بسليمان بن حميد الغافقى هذا ، وكان معاصراً لعبد الرحمن بن حبيب الذى سنتحدث عنه فى التعليق التالى .

(٢) عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى مغامر كبير قضى عمره كله فى طلب الولاية والفتن والقلائل فى الأندلس والمغرب . وقد ظهر أمره بعد مقتل كلثوم ابن عياض القشيرى فى معركة حامية دارت بينه وبين خالد بن حميد الزناتى خليفة ميسرة المدغرى وأنصارهما من الإباضيين والصُّفْريين . وكان أبوه حبيب بن أبى عبيدة يتولى قتال خالد بن حميد الزناتى قبل أن يأتى كلثوم ويتولى القيادة دونه ، فنقم حبيب بن أبى عبيدة واختلف مع كلثوم ابن عياض القشيرى ، وكانت النتيجة انهزام كلثوم ومقتله وفرار حبيب بن أبى عبيدة إلى =

سليمان [... ...][1] يزيد بن حاتم المهلبى فقصدوا قَسْطِيلِيَة . وهو القائل فى يوم أبى زرجونة[2] :

وما إن صَدَدنا عنهُمُ خوفَ بأسِهِمْ ... وحاشا لنا أن نتقى بأسَ بَرْبَرَا
وإنا إذا ما الحربُ أسْعِرَ نارُها ... لَنَلقَى المنايا دارِعِين وحُسَّرَا
ونغدُو بصبرٍ حين تشتجرُ القَنا ... فلستَ ترى منا على الموت أصبرا
ولكنْ أردنا ذلَّ قومٍ تطاولوا ... علينا وأبدوا نخوةً وتكبرا

= إفريقية بطائفة من فل الجيش وفرّ بليج بن بشر ابن أخت عياض بطائفة أخرى إلى الغرب حيث تحصنوا بسبتة كما روينا . وفى أثناء ذلك هرب عبد الرحمن بن حبيب إلى الأندلس ، وحاول الوصول إلى السلطان فيها ففشل ، فعاد إلى إفريقية فى جمادى الأولى سنة ١٢٧ ، وجمع نفراً من أنصار بيته — بيت عقبة بن نافع — وسار لمقاتلة حنظلة بن صفوان الذى تولى أمر إفريقية فى ربيع الآخر سنة ١٢٤ . وقد رأى حنظلة من سوء فعل عبد الرحمن وقلة تورعه عن أى عمل للوصول إلى السلطان ما جعله يمل العمل فى إفريقية فتركها فى جمادى الآخرة سنة ١٢٧/ مارس ٧٤٥ وانفرد بأمرها عبد الرحمن بن حبيب ، وثار عليه معظم رؤسائها ، فخاض معهم حروباً طويلة انتصر فيها ، وتمكن من أن يستصدر من مروان بن محمد أمراً بإقامته والياً على إفريقية والأندلس . ولما انتقل الأمر إلى العباسيين دخل فى طاعة أبى عبد الله السفاح ثم انقلب عليه ، وكان يعينه فى ذلك كله إخوته إلياس وعمران وعبد الوارث . ثم اختلف مع أخويه إلياس وعبد الوارث ، فدبرا اغتيال أخيهما عبد الرحمن وإعادة الدعوة لبنى العباس ، وتمكنا من قتله . وتولى الأمر إلياس بن حبيب ، ولكن حبيباً ابن أخيه عبد الرحمن لم يسكت لمقتل أبيه وانضم إليه عمران ، ودارت رحى حرب طويلة انتصر فيها حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب على عمه إلياس وقتله ، وتولى أمر إفريقية . وهرب عبد الوارث أخو إلياس وحليفه إلى قبيلة من البربر تسمى وَرْفجومة وأثارها على حبيب بن عبد الرحمن ، ولم يستطع هذا الثبات لورفجومة وزعيمها عاصم بن جميل ، فانهزم وقتل فى المحرم سنة ١٤٠/مايو ٧٥٧ . « وكانت ولاية عبد الرحمن ابن حبيب ١٠ سنين وأشهرا ، وولاية إلياس ٦ أشهر ، وولاية حبيب بن عبد الرحمن سنة واحدة و٦ أشهر » . النويرى : ٤١ —

(١) بياض بالأصل ، يمكن ملؤه بعبارة مثل « وبنوه إلى أيام » .

(٢) لم أجد تعريفاً بهذا اليوم فيما بين يدىّ من المراجع .

٢٥ ــ عبد الله بن الجارود العَبْدى ، ويقال له عَبْدُوَيه

لما غَلب على القيروان ، وأخرَج الفضلَ بن روح ثم رده وأرداه ، بَعُد صيته واستغلظ أمرُه ؛ وزحف إليه مالك بن المنذر الكلبى من « مِيلَة » فى جند حِمص ثائرين بالفضل ، فصُرع مالك بسهم فى تقاتلهما ونجا ابن الجارود . ثم زحف إليه العلاء بن سعيد المهلبى من الزاب ــ ولم تكن لابن الجارود به طاقة ــ فصادفه قد خرج من القيروان ليَلقى خليفة هرثمة بن أعْيَن ، وقد قدّمه بين يديه ، وذلك / مُستهل صفر سنة تسع وسبعين ومائة . وكان الرشيدُ لما بلغه خبرُ ابن الجارود [٢٤ ــ ب] قد وجّه إليه من تلطَّف به حتى أقدمه عليه ، وكانت أيامُه سبعةَ أشهر . وقدم هَرثمةُ بن أعْيَن والياً على إفريقية .

ومن شعره عند فتكه بمحمد بن الفارسى ، وكان من أصحابه ثم خرج عليه فى أهل خراسان ومن أطاعه ، وتناهضا للحرب فمكر ابنُ الجارود به ، ودعاه إلى الكلام ، وأمر شجاعاً من فرسانه إذا رآه معه أن يفتك به ، فتم ذلك وانهزم أصحابه . وقال ابنُ الجارود فى ذلك[1] :

---

(١) سبق أن ذكرنا ابن الجارود وماكان من حربه مع الفضل بن روح بن حاتم . وجميع الرجال الذين ذكرهم ابن الأبار هنا ورد ذكرهم عند ابن عذارى (١/٨٦ ــ ٨٨) والنويرى (١٢٧ ــ ١٣٠) . أما الحادثة التى أوجزها ابن الأبار هنا فقد أوردها النويرى بتفضيل يهمنا منه هنا أن محمد بن يزيد الفارسى ــ الذى يغلب على ظننا أنه ابن واقد أيضاً ــ كان من رجال الفضل بن روح بن حاتم وأنصاره ، ثم انقلب عليه وانضم إلى ابن الجارود طالما كان السلطان له . فلما أقام هارون الرشيد هرثمة بن أعين عاملا على إفريقية أرسل معه رجالا من ثقاته منهم يقطين بن موسى ، وكان من كبار جند الخراسانية ، وكان نفر كبير من جند إفريقية خراسانيين ، وبتأييدهم تمكن ابن الجارود من هزيمة الفضل بن روح بن حاتم ومن كان يؤيده من الجند العربى . وقد تمكن يقطين من إقناع ابن الجارود بالعودة إلى الطاعة ، ولكنه تلكأ فى الخروج إلى بغداد . فلجأ يقطين إلى الحيلة ، واتفق مع محمد بن يزيد الفارسى على أن ــ

لقد رامنى ابنُ الفارسىّ بكيدِه ... فوافقَ أمضى منه عزماً وأكيَدا
عشيةَ أدعوه[١] ليسمع منطقى ... فأعجزه إصدارُ ما كان أوردا
فداريْتُه حتى اطمأن جنانُه ... وكنتُ امرَأً مثلى أغار وأنجدا
أشرتُ إلى ذى نجدةٍ[٢] فانكفا لهُ ... بأسمرَ خَطِّىٍّ إذا مال أقصَدا
فما زال قابَ القوس إلا وعاملٌ[٣] ... من الرمح دامٍ بينَ خَصْنَيْه[٤] قد بدَا
فقل للعَلاء[٥] : قد أصابتْ محمداً ... مَنِيَّةُ يومٍ ، فارتقبْ مثلَها غدَا

= يترك ابن الجارود « ووعده بالتقدم وقيادة ألف فارس وصلة وقطيعة فى أى المواضع شاء ، على أن يفسد حال عبد الله بن الجارود ، ففعل ذلك ، وسعى فى إفساد الخواطر على ابن الجارود » ، وقد عرف ابن الجارود كيف ينتقم منه . فلما التقيا للحرب دعاه للتحدث معه كأنه يريد أن يعرض عليه أمراً قبل القتال ، فانخدع محمد بن يزيد الفارسى وخرج إليه ، وكان ابن الجارود قد أرصد له رجلا من أنصاره يسمى أباطالب ، فانقض عليه أثناء الحديث وقتله .

(١) الأصل : يدعوه ، وقد قومتها للسياق .

(٢) الإشارة هنا إلى أبى طالب الذى ذكرناه .

(٣) عاملُ الرمحِ وعامِلَتُه صدره دون السنان ، ويجمع عوامل ؛ وقيل عامل الرمح ما يلى السنان (اللسان : ٤/٥٠٥) .

(٤) كذا فى الأصل ، والحركات واردة فى المخطوط . ولم أجده فى المعاجم ، والأغلب أنه « حِضْنَيْه » ومعناه هنا : جنبيه .

(٥) هو العلاء بن سعيد ، كان والياً للفضل بن روح بن حاتم على الزاب ، فلما قَتل ابنُ الجارود الفضلَ بن روح بمعاونة الجند الخراسانية نهض قادة العرب بمن معهم للثأر منه ، وقد تولى ذلك شمدون القائد . وكان أول من استجاب للنداء أبوعبد الله مالك بن المنذر الكلبى عامل « ميلة » ، فالتقى مع ابن الجارود فانهزم وقُتل ، فأرسل شمدون إلى العلاء بن سعيد فاستقدمه من الزاب ، وكان فى جنده عدد عظيم من البربر ، فأقبل العلاء بن سعيد إلى الأُرْبُس — وهو الموضع الذى قتل فيه أبوعبدالله مالك بن المنذر — واجتمع بشمدون القائد وفلاح بن عبد الرحمن الكلاعى وغيرهما من القواد . وفى هذه الأثناء أرسل الرشيد هرثمة بن أعين أميراً على إفريقية ، فأرسل هرثمةُ يقطين بن موسى ، وكان من رؤساء جند الخراسانية ، ليقنع ابن الجارود بالدخول فى الطاعة ، فلما أبلغه نبأَ استعمالِ الرشيدِ هرثمةَ أجاب بالسمع والطاعة ، لكنه رفض الخروج =

وهو القائل أيضاً فى مصرع مالك بن المنذر ، يخاطب العَلاء بن سعيد عند ما زحف إليه :

أفى كلِّ يومٍ ثائرٌ قتلتُـــه بفضلٍ[1] ، وما ينفكُّ للفضلِ ثائرُ
قضيتُ لنفسى النَّذْرَ فى قتلِ مالكٍ وإنى لها قتلَ العلاءِ لناذرُ
فما للعـــلاءِ خيرةٌ فى لقائنا وليس له فى الناس إن فرَّ عاذرُ

٢٦ — مالك بن المنذر الكلبى ، أبو عبد الله

كان والياً على « مِيلَة » ، فدعاه جند حِمص وغيرُهم من العرب فأمَّروه لطلب ثأر الفضل بن روح . واجتمع إليه الناس والتقى هو وابن الجارود فانهزم أصحابُ مالك ، فترجَّل عن فرسه وشدَّ فى نفرٍ من أصحابه وهو يقول :

يا موتُ إنى مالكُ بنُ المنذرِ أهتِكُ حَشْوَ البَيْضِ والسَّنَوَّرِ
[٢٥-١] / أقتُلُ مَن صابَرَ أو لم يصبرِ كأننى أفعلُ ما لَمْ يُقْدَرِ

= من إفريقية وقال : « . . ومع العلاء البربر ، فإن تركت الثغر وثب البربر فأخذوه ، وقتلوا العلاء ، ولا يدخله والٍ لأمير المؤمنين أبداً ، فأكون أشأم الخلق على هذا الثغر ، ولكن أخرُجُ إلى العلاء ، فإن ظفربى فشأنكم بالثغر ، وإن ظفرتُ انتظرتُ قدوم هرثمة . . » . ولم يستطع ابن الجارود أن يهزم العلاء ، بل اضطر إلى مغادرة إفريقية . وقد استولى العلاء على القيروان بعد ذلك ثم دخل فى طاعة الرشيد وقال إنه صاحب الفضل فى إخراج ابن الجارود من المغرب وتخليصه منه ، فأجازه هرثمة بجائزة سنية ، وأرسل إليه الرشيد ١٠٠ ألف درهم سوى الكساء ، وخرج يريد بغداد فمات بمصر ، وكان ذلك سنة ١٧٩ هـ/٧٩٥ . النويرى ١٢٩ — ١٣٠ .

(١) يريد الفضلَ بن روح بن حاتم .

فخرج إليه ابنُ الجارود وهو يقول :

إليَّ فادْنُ ، مالكَ بنَ مُنذرِ أنا الذى قتلتُ ربَّ المِنبرِ[1]
جرَّعتُـــه كأسَ الحِمامِ الأحمرِ فاصبرْ ستلقاهُ وإن لم يَصبرِ

فقُتل مالك بسهم وانهزم أصحابه .

٢٧ ــ العلاء بن سعيد بن مروان المهلبي

كان والياً على الزاب ، فأقبل منها لمحاربة ابن الجارود . ولما وصل إلى الأُرْبُس اجتمع مع أهل الشام ، وبلغ ذلك ابن الجارود فقال : « أفى كلِّ يومٍ ثائرٌ قد قتلتُه » . . الأبيات الرائية المتقدمة ، وكتب إليه كتاباً معها فجاوبه العلاء عنه وقال يخاطبه :

لعمرك يا عَبْدُوىَ ما كنتُ تاركاً دمَ الفضلِ أو يكسُونِيَ الترب ثائرُ
نذرتَ دمى فانظرْ إذا ما لقيتَنى على مَن بكأسيْها تدور الدوائرُ
ستعلمُ إنْ أنشبتُ فيك مخالبى إلى أىِّ قِرْنٍ أسلمتْكَ المقادرُ

ثم أقبل العلاء فصادف ابنَ الجارود قد خرج إلى يحيى بن موسى خليفةِ هَرثمة بن أعْيَن ، فكان العلاء يدَّعى أنه الذى أخرج ابنَ الجارود من إفريقية .

---

(١) الإشارة هنا إلى الفضل بن روح بن حاتم أيضاً .

٢٨ — إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مُزَين الأوْدى[١]

أصلُ سَلَفه من أكْشُونُبَة ، وصارتْ بها لعَقِبه رئاسةٌ بعد افتراق الجماعة بقُرْطُبَة إلى أن غَلَب على آخرهم المعتضد عباد بن محمد صاحب إشبيلية .

وسكن إبراهيم هذا — وهو والد يحيى بن إبراهيم بن مُزَيْن الفقيه صاحب تفسير الموطأ — قرطبةَ ، وكان يتعاقب مع الحُجّاب وجِلَّةِ الوزراء والقوادِ في أيام الحكم بن هشام . ثم ولاه إمارة طُلَيْطِلَةَ أعواماً متصلة ، وكان قد وَلِيهَا قبلَه جدُّه إبراهيمُ بنُ مُزَيْن الكاتب ، وابنُ الفَرَضِيِّ يجعل بني مزين موالى [٢٥ – ب] رَمْلَة بنتِ عثمان بن عفان / رضى الله عنه . وإبراهيمُ بن محمد هو القائل :

بِأَبِي أنت من غزالٍ مليحٍ ليس فيه لَمَنْ تأمَّلَ « لَوْلاَ »
روضةُ الحُسْنِ فيكَ تُزهى ولكنْ كل حوْل يبْقى ربيعُك حوْلاَ

٢٩ — محمد بن مقاتل بن حكيم العَكِّىّ

ولاه الرشيدُ إفرِيقيَّةَ بعد هَرْثَمة بن أعْيَن ، وكان — فيما يقال — رضيعَ

---

(١) بنومُزَين أسرة معروفة فى الأندلس ، وأشهر رجالها محمد بن عيسى بن مُزَين المؤرخ والفقيه المعروف . ولم أجد عن إبراهيم هذا إلا إشارة يسيرة يبدو أنها تدور على جده إبراهيم بن مُزَين أيضاً (الضبى ، بغية الملتمس ، رقم ٥٢١ ص ٢١٠) . أما يحيى ابنه فقد ترجم له ابن الفرضى وقال إنه مولى رملة بنت عثمان بن عفان رضى الله عنه ، من أهل قرطبة وأصله من طليطلة ، وهو تلميذ عيسى بن دينار ويحيى بن يحيى والغازى بن قيس وطبقتهم ، أى أنه من الطبقة الثانية من مالكية الأندلس . وله كتب كثيرة ذكرها ابن الفرضى (رقم ١٥٥٦ ج ٢ ص ٤٦ — ٤٧) توفى ١٢ جمادى الأولى ٢٥٩/١٧ مارس ٨٧٢ .

الرشيد . وكان جعفرُ بن يحيى شديدَ العناية به ، فقدم القَيْروان سنة إحدى وثمانين ومائة فى رمضان ، وكان أبوه مقاتل بن حكيم من كبار القائمين بالدعوة العباسية ، وحضر مع قَحْطبة بن شبيب حروبَ المروانية ، ثم قتله عبد الله بن على لما خَلَعَ وادعى الأمر .

ولم يلبث محمدُ بن مقاتل أن اضطرب أمرُه ، واختلف عليه جندُه ، وخرج عليه بتونس تَمّام بن تَميم التميمى — وكان عاملَه عليها ، وهو جد أبى العرب محمد بن أحمد بن تميم بن تمام صاحب « طبقات إفريقية » — فزحف إلى القيروان فى رمضان سنة ثلاث وثمانين ، فخرج إليه ابنُ العَكّى فانهزم ، ودخل تمام القيروان فى آخر رمضان المذكور ، فأمَّنه على دمه وماله على أن يخرج عنهم .

وكان إبراهيم بن الأغلب والياً على الزاب ، فنهض منها فى نصرة محمد بن مقاتل . وعلم تمامٌ أنه لا طاقة له به ، فتخلى عن القيروان ورجع إلى تونس .

ودخل إبراهيمُ القيروان ، فبدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم صعد المنبَر فخطب الناسَ وأعلمهم أن أميرَهم محمدُ بن مقاتل . وكتبَ إليه فأقبل راجعاً[1] .

وأراد تمامٌ أن يُحَرِّش بينهما فكتب إلى محمد بن مقاتل كتاباً فى آخره[2] :

وما كان إبراهيمُ مِنْ فَضْلِ طاعةٍ ... يَرُدُّ عليكَ الثَّغْرَ لكنْ لتُقْتَلا
فلو كنتَ ذا علمٍ وعقلٍ بِكَيْدِه ... لَمَا كنتَ منه يا ابنَ عَكٍّ لتَقْبلا
فمهما تَشَأْ يمنعْك منه ابنُ غالبٍ ... ومهما يَشَأْ فيك ابنُ أغلبَ يفعلا

---

(١) أورد النويرى (١٣١ — ١٣٢) وابن عذارى (٢/٩٠) الخبر بتفصيل . قال ابن عذارى : « فدخل ابن الأغلب القيروان ، وابتدر المسجد الجامع ، وصعد المنبر ، وكان بليغاً ، فأعلم الناس أنه ما وصل إلا لنصرة محمد بن مقاتل ، وأنه هو أميرهم المقدم عليهم من أمير المؤمنين ، وكتب إلى العكى يخبره بما فعل فى حقه ، ويؤكد عليه فى الوصول ، فأقبل راجعاً . . »

(٢) راجع نص هذا الكتاب عند ابن عذارى ٢/٩١ .

فجاوبَه العكيُّ بنقيض ذلك وكتب فى أسفل كتابه :

[٢٦-١] / وإنى لأرجو إنْ لقيتَ ابنَ أغلبٍ غداً فى المنايا أن تُفَلَّ وتُقتَلا
تُلاقِى فتىً يستصحِبُ الموتَ فى الوغى ويَحمى بصدر الرمح عزًّا مؤثَّلاَ
كأنكَ قد صافحتَ فى بطن كفهِ من البيضِ محمودَ المهزّة متّصلا

وأقبل تمام ثانيةً فى عسكرٍ ضخم ، فخرج إليه إبراهيمُ وابنُ العكى وراءه ، فانهزم تمامٌ عند التقائهما . وعاد ابنُ العكى إلى القَيْروان واتبعه[1] إبراهيم إلى تونس ، فطلب منه الأمان فأمَّنه ورحل به إلى القَيْروان . وبعقب هذا ورد كتابُ الرشيد بعزل ابن العكى وتوليةِ إبراهيم بن الأغلب .

٣٠ – الخصيب مولى ابن العكى

قدَّمه محمد بن مقاتل مولاه لحرب مخلد بن مرة[2] — الخارجِ عليه قَبْل تمام بن تميم — وأمَّره على الجيش الناهد بصحبته ، فصبَّح القومَ آمَنَ ما كانوا ؛

---

(١) الضمير هنا عائد على تمّام بن تميم . ويبدو أن الناسخ أسقط هنا شيئاً ، وإليك الخبر كما يقصه ابن عذارى فى حوادث ١٨٣/٧٩٩ و١٨٤/٨٠٠ : « وأقبل تمام من تونس بعسكر عظيم ، وأمر ابنُ العكّى من معه من أهل الطاعة بالخروج إليه مع إبراهيم بن الأغلب ، فتقاتلوا قتالا شديداً ، فانهزم تمام ، وانصرف ابن العكى إلى القيروان ، وأمر ابراهيمَ بن الأغلب بالمسير إلى تونس . وفى سنة ١٨٤ خرج العسكر من القيروان لحصار تونس وقتال تمّام وذلك فى المحرم منها ، فلما بلغ تماماً إقبالُه طلبَ الأمان منه ، فأمَّنه إبراهيم ، وأقبل به إلى القيروان يوم جمعة ، لثمان خلون من المحرم المذكور » (٢/٩٢ – ٩٣) .

(٢) زيادة فى التعريف بالحوادث التى يذكرها ابن الأبار هنا نورد الفقرة التالية من « نهاية الأرب » للنويرى (ص ١٣١) : « ولما كتب هرثمة [ابن أعين] إلى هارون [الرشيد] يسأله الإعفاء وجّه محمد بن مقاتل [العكى] أميراً للغرب ، وكان رضيع هارون ، فقدم القيروان فى شهر رمضان سنة ١٨١ ، ولم يكن بالمحمود السيرة ؛ فاضطربت عليه أحواله واختلفت جنده ، —

وهم خمسمائة من أهل خراسان والشـــام . وكان الذى هاج ذلك فلاَّح بن عبد الرحمن الـكلاعى ، فقتل مخلد بن مرة أميرَهم وعدةً ممن كان معه ، وانهزم أصحابه إلى تونس . ومرّ الخصيبُ بمنزل فلاح فأحرقه ، وأخذ امرأته فانطلق بها وقال فى ذلك :

لو كنتَ حُرًّا يا فلاحُ صبرتَ لى ... وحميتَ عِرْسَكَ والفتى يَحْمِى
لـكنْ هربتَ من القِراع وأسلمتْ ... كفَّاكَ حُرْمَتَهَا على الرَّغْمِ
ما النجمُ أبعد منك — لوْ طالبتَهُ ... لتنـــاله بيديْك — مِن سَلْمِى

٣١ — تمام بن تميم الدارمى التيمى ، أبو الجهم
القائم على ابن العكى المذكور آنفاً

وهو ابن عم إبراهيم بن الأغلب . قد تقدم من خبره وشعره ما أغنى عن إعادته هنا ؛ وفى « الـكتاب المُغْرِب عن أخبار المَغرِب » تأليف أبى على الحسن بن أبى سعيد القيروانى ، أن تماماً هذا لما سمع بحركة إبراهيم بن الأغلب إليه من الزّاب فى محاربته ونصْر ابن العَكِّىّ ، كتب إليه كتاباً يستدعيه ويستعطفه وكتب فى أسفله :

— وكان سبب الاضطراب عليه أنه اقتطع من أرزاق الجند وأساء السيرة فيهم وفى الرعية ، فقام فلاح [بن عبد الرحمن الكلاعى القائد] ، ومشى فى أهل الشام وخراسان ، حتى اجتمع رأيهم على تقديم مرة بن مخلد الأزدى (وفى مخطوط آخر : الأسدى ، وكذلك عند ابن عذارى وابن الأثير) وخرج عليه بتونس تمام بن تميم التميمى ، وكان عامله عليها ، فبايعه جماعة من القواد وأهل الشام وأهل خراسان ، فخرج فى النصف من شهر رمضان سنة ١٨٣ إلى القيروان ، وخرج إليه ابن العكى ، فيمن معه ، فقاتله قتالا شديداً فى « مُنية الخيل » فانهزم ابن العكى ، ودخل القيروان ، وتحصن فى دار كان قد بناها ، وجلا عن دار الإمارة . . » ، وقد أضفت الحواصر والأقواس وما بينها زيادة فى التوضيح .

openkandil.com

[٢٦ - ب] / أقدِّم إبراهيمَ عِلماً بفضلِهِ وحُقَّ له فى الأمر أن يَتَقَدَّما
وقلتُ له : فاحكمْ فحُكمُكَ جائزٌ علينا فقد أصبحتَ فينا مُقدَّما
ورُدْ فى بلاد الزابِ ما شئتَ قادراً وإن شئتَ مُلكَ الغربِ خُذْهُ مُسَلَّما

فجاوبه ابن الأغلب بخلاف ذلك وكتب إليه فى أسفل كتابه :

دعوتَ إلى ما لو رضِيتُ بمثله لما كنتُ — يا تمامُ — فيه مقدَّما
سأجعلُ حُكمى فيكَ ضربةَ صارمٍ إذا ما علا منكَ المَفارقَ صَمَّما
ستَعلمُ لو قد صافحتْك رماحُنا بكفِّ المنايا ، أيُّنا كان أظلما

فذُكر عن فلاح الكلاعى أنه قال : « كنت عند تمام يومَ قرأ كتاب إبراهيم ، فذهب لونُه ثم ارتعد حتى سقط الكتاب من يده » . وكان صارماً شجاعاً مُمَدَّحاً ، وفيه يقول الفضلُ بن النَّهْشلى يمدحه من قصيدة :

أضحتْ ومنزلُها مِصْرٌ ومنزلُنا بالقَيْروان ، ويا تَشْواقَ مُغْتَرِبِ
أخا بنى نَهْشَلٍ ، دَعْها فقد نزحتْ وامدحْ قَريعَ مَعَدٍّ واحدَ العربِ
تمامُ كَبْشُ بنى عَدْنانَ قاطبةً الدارمىُّ الكريمُ البيتِ والنسبِ
الفارسُ البطلُ الحامى حقيقتَهُ والناعِشُ الوائشُ الفَرَّاجُ للكُرَبِ
تأوى إليه نِزَارٌ حين يَدْهَمُها رَيْبُ الزمان وتخشى سطوة النُّوَبِ
أعطتْ بنو دارمٍ فى المجد رايتَها بنى المُجاشِعِ يومَ الفخرِ والحَسَبِ

قال أبو العرب ، وذَكَرَ ولايةَ جدِّه تمام هذا إفريقيَّةَ بعدَ محمد بن مقاتل العَكِّىِّ : « تمامُ بن تميم : هذا هو جَدُّنا ، هو ابن القادم من المشرق » . قال : « وتوفى سنة سبع وثمانين ومائة ببغداد » .

وفى « الكتاب المغرِب عن أخبار المغرب » أن إبراهيم بن الأغلب لما صار الأمرُ إليه بَعث به وبجماعة معه — من وجوه الجند الذين كان شأنهم الوثوب

على الأمراء — إلى الرشيد ، فأما تمام فإنه حُبس إلى أن مات فى حبسه .

وحُكى أن الرشيدَ / وعد أخاه سَلَمَة بن تميم إطلاقَه ، وبلغ ذلك إبراهيمَ [٢٧ - ا]
ابنَ الأغلب فكتب إلى عمته وهىَ ببغداد فى سَمِّه ، فاشتهى تمام حوتاً فسَمَّتْه له ، فمات مِن أكله بعد أن ذهب بصرُه فى المُطْبِق قبلَ موته بشهرٍ . وعَلِمَ الرشيدُ بذلك فترحَّم عليه وتوجَّع له ، وأحسنَ إلى سَلَمَة أخيه وصرفَه إلى إفرِيقِيَّةَ .

٣٢ — إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال ، أبو إسحٰق

ولاه الرشيدُ إفْرِيقِيَّةَ بعد محمد بن مقاتل العَكِّيِّ فاستقلَّ بمُلكها وأورثَ سلطانَها بنيه نيفاً على مائة سنة . وكان فقيهاً عالماً أديباً شاعراً خطيباً ، ذا رأى وبأس وحزم ومعرفة بالحرب ومكائدها ، جرىء الجنان طويلَ اللسان حسنَ السيرة ، لم يَلِ إفريقيةَ أحدٌ قبلَه من الأمراء أعدلَ فى سيرةٍ ولا أحسنَ لسياسةٍ ولا أرفقَ برعيةٍ ولا أضبطَ لأمرٍ منه .

وكان فى أول حالته كثيرَ الطلب للعلم والاختلاف إلى الليث بن سعد الفقيه ؛ والليثُ وَهَبَ له « جَلاَجِلَ » أمَّ ابنه زيادة الله ، فخرج بها حتى وصل الزاب — وعلى إفريقية يومئذ الفضلُ بنُ روحِ بن حاتم — فلقى من تعصُّبه وسوء مجاورته عظيماً . وأقام أخوه عبد الله بن الأغلب بمصر ، وكان ذا نعمة عظيمة ، فلما توفى ارتحل بنوه إلى إفريقية .

وولى الزابَ من قِبَل هارون الرشيد وابنُ العَكِّيِّ على إفريقية ، وقد تقدم ذِكرُ نُصرته لابن العَكِّيِّ إلى أن صُرِف بإبراهيم سنةَ أربع وثمانين ومائة .

وتوجه إلى المشرق ، فلما بلغ طرابلسَ دَلَّس له كاتبُه داوودٌ القيروانى على لسان الرشيد كتاباً بإقراره على إفريقية وانصرافه إلى عمله ، فتمشّى ذلك زماناً . وبلغ الرشيدَ فغاظه ، وأسجلَ لإبراهيمَ بولاية إفريقية ثانيةً ، فاشتد عند ذلك سلطانُه وعظُم دون الملوك الذين تقدموه شأنُه ، وخرج ابنُ العَكِّىّ من إفريقية وأعمالها . وعلى هذه الحال لم يُكافِ إبراهيم على حُسن ما أسلفه فى جانبه إلا بأقبح الأفعال .

ومن فضائل إبراهيم المأثورة ، وجلائل أنبائه المسطورة ، أنه عفا عن داوود كاتبِ ابن العَكِّىّ وأسقط التثريبَ عليه وقَبِل متابَه فأمَّنه واستعمله ، وقد ذكرتُ ذلك فى تأليفى المترجَم بـ « إعتاب الكُتّاب »(١) ، وهو القائل وقد خلَّف أهلَه بمصر فى قصده الزّابَ :

[٢٧ – ب] / ما سِرتُ مِيلاً ولا جاوزتُ مرحلةً ... إلا وذكرُكِ يَثْنى دائباً عُنقى

ولا ذكرتُكِ إلا بِتُّ مُرتفِقاً ... أرعَى النجومَ كأنَّ الموتَ مُعتنِقى

البيت الأول نظير قول يزيد بن معاوية بن أبى سفيان فى زوجه :

إذا سرتُ ميلا أو تغنَّتْ حمامةٌ ... دعتنى دواعى الشوق من أمِّ خالدِ

وكان محمد بن سِيرِين يقول : « هو أشوق بيت قالته العرب » .

وقال إبراهيم وهو بالزاب فى قتل ابن الجارود للفضل بن رَوْح بن حاتم ، وقد بلغه أن نصر بن حبيب المهلبى(٢) أشار بردِّ الفضل من طريقه ، لأنه خاف

---

(١) انظر : إعتاب الكُتّاب لابن الأبار ، بتحقيق الدكتور صالح الأشتر (مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق) دمشق ١٩٦١ ، رقم ص ١٠٥ – ١٠٧ .

(٢) نصر بن حبيب المهلبى ، رابع من تولى أمر إفريقية من المهالبة ، وليها فى ٢٠ رمضان ١٧٤/٣١ يناير ٧٩١ بعد موت روح بن حاتم بن قَبِيصَة بن المهلب بن أبى صفرة ، =

openelkanali.com

أن يُحدث حدثا فيقتلَه ابنُ الجارود بسببه[١] :

يا نصرُ قد أصبحتَ الأمَ مَن مَضَى منكم،[٢] والأمَ حاضرٍ معلومِ
لما أشرتَ بردِّ فضــلٍ بعدما قطعَ البلادَ على أقبَّ[٣] رَسُومِ
لم ترْضَ بالخذلان حتى كِدتَه لا زلتَ مخذولا بغير حميمِ
ما كنتَ حين غدوتَ تنشر لحيةً فيها لِقومِك غَدْرةٌ بكريمِ
لو كان نادانى أجبتُ دعاءه بالخيل أُقْحِمُها بسَعدِ تميمِ[٤]
خيلٌ بها أُهدِى المنايا للعِدَى وبها أُفرِّج كُرْبةَ المكظومِ

= وكان هذا الأخير شيخاً مسناً غلب عليه الضعف حتى كان يغلبه النعاس إذا جلس للناس ، فكتب أبو العنبر القائد وصاحبُ البريد إلى الرشيد يقترحان تولية نصر بن حبيب سراً ، حتى إذا مات الفضل لم يضطرب الأمر ، فأجاب الرشيد . وعندما توفى روح بن حاتم فى التاريخ المذكور حاول ابنه قَبِيصَة أن يتولى الأمر بدون عهد ، ولكنه اضطر للتخلى لنصر عندما تبين أن الرشيد عهد إليه . وقد أقام نصر والياً على المغرب سنتين وثلاثة أشهر ، إذ عزل بالفضل بن روح بن حاتم فى المحرم ١٧٧/ أبريل ٧٩٣ .

انظر : النويرى ، ص ١٢٧ .

(١) يفهم من هذا أن إبراهيم بن الأغلب قال هذه الأبيات قبل ولايته أمر إفريقية بزمن طويل ، فقد قتل الفضل سنة ١٧٨/٧٩٤ ، وتولى إبراهيم إفريقية فى منتصف جمادى الآخرة سنة ١٨٤/ يونيو ٨٠٠ . وظاهر من الأبيات أن ابن الأغلب كان يتهم نصر بن حبيب المهلبى بأنه كان سبب قتل الفضل بن روح بن حاتم على يد ابن الجارود . وذلك أن هذا الأخير بعد أن هزم الفضل ودخل القيروان أخرج الفضل منها وتركه ليعود إلى المشرق ، ثم رده برأى نصر بن حبيب المهلبى كما يفهم من ذلك الخبر : وكانت النتيجة أن قتل الفضل وأخرج بقية بنى المهلب من إفريقية . ويبدو أن نصر بن حبيب فعل ذلك انتقاماً من الفضل ، لأن هذا ، بعد وفاة أبيه روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب فى رمضان سنة ١٧٤ ، ذهب إلى بغداد وأقام على باب الرشيد يلح فى طلب الولاية حتى أجيب إلى طلبه ، فعزل نصر بن حبيب وتولى الفضل فى المحرم ١٧٧/ أبريل ٧٩٣ .

(٢) الإشارة هنا إلى بنى المهلب .

(٣) الفرس الأقب هو الذى لحقت خاصرتاه بحالبيه ، كناية عن الضمور . اللسان : ١٥٢/٢ . والرّسوم هو الفرس اللين السير مع سرعته .

(٤) من المعلوم أن بنى الأغلب تميميون .

وقال أيضاً فى دخوله القيروان قائماً بنُصرة ابن العكى وهربِ تمام بن تميم أمامه :

لو كنتُ لاقيتُ تمّاماً لصالَ بهِ ضربٌ يفرّق بين الروح والجسدِ
لكنه حين شام الموتَ يَقْدُمنى ولّى فراراً وخلَّى لى عن البلدِ
إن يستقمْ نعفُ عما كان قدّمهُ وإن يَعُدْ بعدَها فى غدرةٍ نَعُدِ

ثم نزل عن المنبر وكتب إلى محمد بن مقاتل يستميده إلى عمله وقال فى ذلك :

أتشكرُ عنا ما صنعتُ بِرَبِّها(١) وردِّى عليها الثغرَ أمْ هى تكفُرُ ؟
[٢٨-١] / نَفيتُ لها التمام(٢) بالسيفِ عنوةً ولم يُغْنِه فى الله ما يَتَمَضَّرُ
فأقبِل إلى ما كنتَ خَلّفت كارهاً فقد ذاد سيفى عنكَ ما كنتَ تحذرُ

وقال أيضاً فى ذلك :

ألم ترنى رَدَدْتُ طريدَ عَكٍّ وقد نَزَحَتْ به أيدى الركابِ
أخذتُ الثغر فى سبعين منّا وقد أوفى على شرف الذهابِ
هزمتُ لهم بِعُدّتهم ألوفاً كأنّ رَعِيلَهمْ قزعُ السحابِ

قال إبراهيم هذا لأنه قصد لنُصرة ابن العَكّىّ فى سبعين فارساً من أهل بيته وخاصته إقداماً ونجدة ، فقال بعضُ شعراء إفْرِيقِيّة فى ذلك :

ما مر يوم لإبراهيم نعلمهُ إلا وشِيمتُه للجود والباسِ

---

(١) المراد بربها هنا واليها أو حاكمها ، والإشارة إلى تمكنه من رد محمد بن مقاتل العكى إلى الولاية بعد هروبه .

(٢) التمام هو تمام بن تميم التميمى .

ولما حارب تمّاماً وابن العَكّيّ بالقيروان ، حمل على الميمنة وهو يقول :

أطعنُهمْ ولا أرَى لِي كُفوَا حتى أنالَ ما أريدُ عفوَا

أو أحْسُوَنْ كأسَ المَنايا حَسْوَا

ثم رجع إلى الميسرة بعد أن كسر الميمنة وهو يقول :

قد علمتْ سعدٌ وأبناء مُضَرْ أنّى مَنَعْتُ عِزّها أن يُعتَصَرْ

وأننى نخارُها لمن فَخَرْ

فنَفَضّها ، ثم رجع إلى القلب فشدّ عليه وهو يقول :

يا قلبُ قد أبصرتَ صاحبيكا ما لَقِيا منى فخُذْ إليكا

ضرْباً يَمُور وَقْعُه عليكا كيف ترى دَفْعى بجانِبَيكا

وحمل أصحابُه فكانت الهزيمة على تمام .

وله حين وجّه بمن كان يخاف أمرَهم من وجوه الجند إلى الرشيد[1] :

ما سار كيدى إلى قومٍ وإن كثُروا إلا رَمَى شمْبَهم بالحزمِ فانصدَعا

ولا أقولُ ، إذا ما الأمرُ نازَلَنى : « يا ليْتَه كان مصروفاً ! » ، وقد وَقَعا

/ حتى أجَلّيَه قهـراً بمعتزمٍ كما يُجَلّى الدُّجَى بدرٌ إذا طلعا [٢٨- ب]

قوماً قتلتُ وقوماً قد نَفَيْتُهُمُ ساموا الخلافَ بأرضِ الغربِ والبِدَعا

كُلّاً جزيتُهُمُ صَدْعاً بصَدْعِهِمُ وكلُّ ذى عملٍ يُجْزَى بما صنعا

---

(١) سبق أن ذكر ابن الأبار كيف أرسل إبراهيم بن الأغلب تمام بن تميم التميمى وأخاه سلمة إلى بغداد ، حيث حبسه الرشيد فى المطبق حتى مات فيه . وجاء فى نهاية الأرب للنويرى : « فلما صار الأمر إلى إبراهيم بن الأغلب بعث تماماً بن تميم وغيره من وجوه الجند الذين شأنهم الوثوب على الأمراء إلى بغداد ، فحبسوا فى المطبق » (ص ١٣٣) .

obeikandl.com

وله أيضاً وهو من جيِّد شعره :

ألم ترنى أرْدَيْتُ بالكيدِ راشداً ... وأنى بأخرى لابنِ إدريسَ راصدُ
تناوَلَهُ عزمى على بَأْيِ دارِهِ ... بمختومةٍ فى طَيِّهِنَّ المكائدُ
وقد كان يرجو أن يفوتَ مكائدى ... كما كان يخشانى على البُعدِ راشدُ
ثلاثون ألفاً سُقتهنَّ لقَتْلِهِ ... لأصلِحَ بالغربِ الذى هو فاسدُ
فأضحى لدينا راشدٌ يَنْتَبِذْنَهُ ... بناتُ المنايا والحِسانُ الخرائدُ
فتاهَ أخو عَكٍّ بمَهْلَكِ راشدٍ ... وقد كنتُ فيه ساهراً وَهْوَ راقدُ(١)

راشد هذا هو مولى عيسى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب ، وكان عاقلاً شجاعاً أيدًا ، خرج بإدريس بن عبد الله أخى مولاه عند انهزامه فى وقعة « فخ » — وقد تقدم ذكرُها — وانغمس به فى حاجِّ أهلِ مصر ، وغيَّر زيَّه وألبسَه مِدْرَعَةً وعمامة غليظة ، وصيَّره كالغلام يخدمه ، ولمن أمره ونهاه أسرع فى ذلك . وتخلص إلى إفريقية فى خبر طويل ، فترك دخولها ثم سار به فى بلاد البربر حتى انتهى إلى فاس وطَنْجَة ، فأظهر إدريس هنالك أمرَه وأخبر بنسبه ، ودعا البربر إليه فأجابوه ، وذلك سنة اثنتين وسبعين ومائة ، فى السنة التى توفى فيها عبدُ الرحمن بنُ معاوية ووَلىَ ابنُه هشام الرضا ، وفى السنة الثانية من خلافة هارون الرشيد ، أقام بين أظهر البربر ملكاً مطاعاً . وبلغ الرشيدَ خبرُه فشق عليه ، وشكا ذلك إلى يحيى بن خالد فدس إليه مَن

(١) سيفصل ابن الأبار بعد ذلك كيف دبر إبراهيم بن الأغلب قتل راشد ، وكان ذلك أثناء ولايته للزاب ، أى قبل أن يلى إفريقية ، وسيذكر كيف أن محمد بن مقاتل العكى زعم لهارون الرشيد أنه هو الذى قتل راشداً ، ثم علم الرشيد بذلك ، فكان من أسباب توليته إفريقية . وهذه الأبيات ظاهرة النحل ، فهى تخلط بين مقتل راشد وموت إدريس الأول مسموماً .

سَمَّه فى غالية ، وقيل فى ذَرور[١] استَنَّ به ، وقيل فى دُلاّعة[٢] قطعها بسكين ، نصفُها مسموم والثانى غير مسموم ، وقيل فى بطيخة . وهرب هو / وصاحب له ، [٢٩-١] فيقال إن راشداً اتبعهما وقد بعدا فأدركهما وهو وحده على فرسه ، فشد عليهما بسيفه فضرب أحدهما وفات الآخر ؛ وانصرف راشد وهلك إدريس .

ويقال إن الذى دسَّ الرشيدُ إليه ليسمه هو الشماخ اليمامى[٣] ، وكتب له إلى إبراهيم بن الأغلب . فوصل إلى إدريس وعرَّفه أنه مُتَطَبِّب وأنه من أوليائهم ، فاطمأنّ إليه وأنِسَ به . وشكا إليه عِلّةً فى أسنانه ، فأعطاه سَنُوناً مسموماً وأمره أن يَسْتَنَّ به عند طلوع الفجر ، وهرب تحت الليل . فلما طلع الفجر استَنَّ إدريس بذلك السنون فقتله ، وطُلب الشماخ فلم يُقدر عليه . وقدم

---

(١) الذرور كل مسحوق يتداوى به ، والسنون كل مسحوق يستعمل دواءً للأسنان ، وكانوا يستنون أو يستاكون به .

(٢) الدُّلاّعة مفرد دُلاّع ، وهو البطيخ أونوع منه ، وقد عرفه صاحب الكتاب المنصورى بأنه البطيخ الهندى أو السِّندى نسبة إلى السِّند (ومن هنا تسمى البطيخة فى إسبانيا إلى اليوم sandia) ويسمى أيضاً البطيخ الفلسطينى ، وقال أبو القاسم الزهراوى إنه البطيخ الشامى . ويفهم من النص هنا أن الدلاع غير البطيخ ، أو أنه صنف منه على أى حال . وقد قال الرحالة ريتشاردسون إن الدلاع بطيخ صغير مر الطعم . وفى المغرب إلى اليوم يسمى البطيخ : دُلاّح ، أما ما نعرفه بالشمام فيسمى البطيخ ، وعلى هذا فيكون تفسير عبارة ابن الأبار أن إدريس الأول سُمَّ فى شمامة أوبطيخة . والروايات كثيرة عن ذلك الحادث .

انظر : دوزى ، ملحق القواميس : ١/١٤٥٧ .

وروض القرطاس لابن عبد الحليم أو ابن أبى زرع ، طبعة حجر فى فاس ، ص ٥ .

وابن خلدون ، تاريخ (بولاق) : ٤/١٣ .

وابن عذارى ، البيان : ١/٨٣ .

(٣) هو إدريس الشماخ الذى سبق ذكره . وقال عنه ابن خلدون : «ودس إليه الرشيد مولى من موالى المهدى اسمه سليمان بن حريز ويعرف بالشماخ» (٤/١٣) ، وورد اسمه فى روض القرطاس : سليمان بن حرير (ص ٩) ، وذكره أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى السلاوى صاحب كتاب «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى» . (الدار البيضاء ، ١٩٥٤) ج ١ ص١٥٨ : سليمان بن جرير ويعرف بالشماخ .

على إبراهيم بن الأغلب فأخبره ، فكتب إبراهيم إلى الرشيد بذلك ، فولّى الشماخَ بريدَ مصر وأجازه . وقد تقدم عند ذكره أن الذى سمه سليمان بن جرير فى سمكة مشوية ، وقال فى ذلك أشجع السلمى من شعراء الرشيد :

أتظن يا إدريسُ أنَّكَ مُفلِتٌ كيدَ الخليفةِ أو يَقيكَ حِذارُ
إن السيوفَ إذا انتضاها عزمُهُ طالتْ وتقصرُ دونَها الأعمارُ
هيهات إلا أن تكونَ ببلدةٍ لا يهتدى فيها إليكَ نهارُ

وكانت مدة سلطان إدريس بالمغرب ، إلى أن مات بوَلِيلِي سنة خمس — وقيل سنة أربع — وسبعين ومائة ، ثلاثةَ أعوام وستةَ أشهر .

وكان قد خرج إلى سَبْتة فى شعبان سنة ثلاث وسبعين ، وإلى تازا فى جمادى الآخرة سنة أربع وسبعين ، وترك حملا من إحدى جواريه ، فقام راشد بأمر البربر حتى ولدت غلاماً ، فسمّاه باسم أبيه « إدريس » وكفله إلى أن بلغ الغلامُ .

وعلا أمرُ راشد واستفحل ، وهمّ بغزو إفْرِيقيَّة لما كان فيه من القوة وكثرة الجنود ، فكادهُ إبراهيمُ بنُ الأغلب من الزاب موضعِ ولايته ، ودسّ إلى أصحابه ، وبذل لهم الأموالَ إلى أن اغتالوه وبعثوا برأسه إليه ، فبعث به إلى ابن مقاتل العَكّىّ وأخبره بكيده إياه وتدبيره فى قتله ، فبعث به العَكّىُّ إلى هارون الرشيد ونسب ذلك إلى نفسه / دون إبراهيم ، فكتب صاحبُ بريد المغرب [٢٩ - ب] إلى هارون بصنيع إبراهيم فى راشد . فعلى إثر ذلك وَلى الرشيدُ إبراهيمَ بنَ الأغلب إفريقيةَ وصرف عنها العَكّىّ .

وقد قِيلَ إنَّ الرشيدَ إنما دسّ إلى إدريس مَن اغتاله وخاطبَ إبراهيم [... ...][1] به وهو عامل له على إفْرِيقيَّة ؛ والأول أصح . وتوفى إبراهيمُ

(١) بياض بالأصل يمكن أن نكمله بعبارة مثل : بن الأغلب بأن يُعنَى .

فى شوال لثمانٍ ليالٍ بقين منه سنة ست وتسعين ومائة ، وهو ابنُ ست وخمسين سنة ؛ فكانت ولايته اثنتى عشرة سنة وأربعة أشهر وعشرة أيام .

٣٣ — يحي بن الفضل بن النعمان التميمى ، أبو العباس

كان صاحبَ بريد المغرب أيامَ ابن العكى ، وهو القائل لتمّام بن تميم حين بلغه إقبالُ إبراهيم بنِ الأغلب إليه :

أتمّامُ لا تقعدْ فإنىَ ناصحٌ　　وخُذْ مُهْلَةً إن كنتَ لا بد هاربَا
وإلا فعُذْ مِن سُخْطِهِ بأمانِه　　فلستَ بلاقٍ لابنِ أغلبَ غالبَا
ولا تَحْسُوَنْ كأساً فليس بنافعٍ　　تحسِّيك ما فيها إذا كنتَ(١) شاربَا

٣٤ — خُرَيْش(٢) بن عبد الرحمن بن خريش الكِنْدىّ

ثار بتونس ، وكان صهرَ الحسن بن حرب الكِندى المخالفِ على الأغلب ابن سالم . ولم يكن من الجند ، ولكنه من أبناء العرب الذين كانوا بإفريقية

(١) فى الأصل إن ، ولا يستقيم بها الوزن .

(٢) كذا ورد اسمه فى الأصل بكل وضوح ، ولكن النويرى (ص ١٤٥) وابن خلدون (٤/١٩٦) جعلاه : حمديس ، وتابعهما فى ذلك ڤوندرهايدن فى كتابه عن الأغالبة :

M. VONDERHEYDEN, *La Berbérie Orientale sous la Dynastie des Benoul'Arlab, 800—909* (Paris, 1929) pp. 87 sqq.

وقد كتب هذا المؤلف اسم الأغلب هكذا : **Arlab** لكى ينطق حرف r غيناً كما هو فى النطق الفرنسى ، وهو مذهب مستهجن لم يتابعه فيه أحد .

أما ابن عذارى فقد اكتفى بقوله : « وثار عليه الكندى بتونس » فأراح نفسه . وستتبين من أبيات لإبراهيم بن الأغلب — يوردها ابن الأبار فيما بعد — أن صحة الاسم خُرَيْش .

وقد يكون بالحاء لا بالخاء ، فقد وجدت اسم حريش كثير التوارد .

قبل المُسَوِّدة ، فخلع المُسَوِّدةَ وأتاه العربُ والبربرُ من كل ناحية[١] . فلما كثر جمعُه كتب إلى إبراهيم بن الأغلب :

« من خُرَيْش القائم بالعدل إلى إبراهيم بن الأغلب .

أما بعد ، فإنى أقمتُ عن الخروج قبل يومى هذا لأنى كنت أنتظر أن تفنيكم الحرب ؛ فلعمرى لقد أرانا الله فيكم ما قوّى به أهلَ دعوةِ الحقِّ عليكم . فلما وُلِّيتَ أنت وعلمتَ أنهم مقسومون بين خوف منك ورجاءلك ، عرفت قلة طمعهم فيك . ولو كان أحدٌ ممن وَلِىَ هذا الثغر ممن لا نرى طاعتَه يستحق أن نرضى بولايته ، لـكنتَ أنت ذلك . وقد كان علىّ بن أبى طالب رحمة الله عليه يقول : « إذا وَلَّى عنكم عدوُّكم من أهل الملة فلا تتبعوهم » . ولستُ أطلبُك إن خرجتَ عن الثغر ، فلا تُرِدْ أن تَصْلَى بحَرْبى ، وليـكُنْ رأيُك طلبَ سَلْمِى ؛ والسلام » .

وكتب فى آخر كتابه :

قُلْ جَهْرَةً لأبى إسحاقَ تنصحُهُ ... هذا فراقُـكُمْ للغربِ قد حانَا

[٣٠ - ١] /فلا يعود إليه منكمُ أحـــدٌ ... حتى يعودَ من الأجداثِ مَوْتانا

فارجِـعْ عنِ الغربِ أوألْقِ السَّوَادَ به[٢] ... لا تَخْتَرِمْكَ المنايا حينَ تَلْقانا

---

(١) هذه العبارة عظيمة الأهمية ، وهى تكشف لنا عن حقيقة حركات بنى عبيدة بن عقبة ابن نافع وتمام بن تميم وسليمان بن حميد الغافقى وابن الجارود ومن إليهم ، فهؤلاء هم عرب إفريقية الذين دخلوها أيام الفتح واستقروا فيها ، ونشأ فيها أبناؤهم يرون أنفسهم أهل البلد وأولى بحكمه من الولاة الذين ترسلهم الخلافة وجندهم ، وهذه الحقيقة تكشف لنا سر هذا الصراع وسببه . وقد انضم إلى أولئك العرب الأفارقة جماعات من البربر ، لأنهم كانوا أقرب إليهم من الولاة وجندهم .

(٢) كان عمران بن مجالد ثائراً على دعوة بنى العباس ، وكان هو وجنده كارهين لها ، حتى كان أصحابه يهتفون أثناء قتالهم مع جند إبراهيم بن الأغلب : « بغداد ، بغداد ! فلا والله لا اتخذنا لكم طاعة بعد اليوم أبدا » (النويرى : ١٣٥ — ١٣٦) ، ولهذا فهو يدعو ابن الأغلب هنا إلى خلع السواد إشارة للخروج على بنى العباس . وكان عمران من رؤساء الجند ، وكان أول =

وسوف تَعلَمُ أنَّ الموتَ يَسمعُ لى إذا التقتْ بنواحى الفحص[1] خَيْلانا

فلما قرأ إبراهيم كتابَه كتب إليه :

« من إبراهيم بن الأغلب إلى خُرَيْش رأس الضلال .

سلامٌ على من اتَّبع الهدى ، أما بعد

فإن مِثلَك مِثلُ البعوضة التى قالت للنخلة إذ[2] سقطت عليها : « استَمْسِكى فإنى أريد الطيران ! » فقالت النخلة : « ما شعرتُ بسقوطك فيُكْرِبُنى طيرانُك » . فأما انتظارُك فى الحرب فَناء ، فلو لم يَبْقَ فى المغرب من أهل الطاعة غيرى ما وصلتَ أنت فى مَن معك بخلافكم إليه ، ولرجوتُ أن أظفر بكم بطاعتى ونُصرةِ دولة أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ؛ فكيف وعندى من شيعته وأبناء أنصاره من يعلم الله أنى أرجوه أن ينتقم منك على يدى ؟ وأما ما ذكرتَ عن علىّ ابن أبى طالب رضوان الله عليه ، فذاك أمر غاب عنك . وإن كان كما ذكرتَ فلست منهم ، لأن أهل الملة خلافهم خلاف هُدًى[3] فى نقمة على جور ، وخلافكم خلاف فرقة دين وشَقٌّ عصا المسلمين ، ونقمتهم ما هو لله رضا . وستعلم أنت وأصحابك إن لقيناكم غداً أنّا سنتَّبعكم ، وإن صبرتم أنا سنفنيكم .

= الأمر من أنصار إبراهيم بن الأغلب ، ثم اختلف معه فى خبر يحكيه النويرى بالتفصيل ملخصه أن عمران سار مع إبراهيم مرة يحدثه مسافة طويلة ، ثم تبين أنه ساهٍ عن كلامه ، فغضب ، ثم كانت الحرب بينهما ؛ وهو سبب فيما يبدو لنا تافه . والحقيقة — كما تستبين من ثنايا الحوادث — أن إبراهيم بن الأغلب لم يجد مالا ليؤدى أرزاق جنده ، فبعث — فيما يبدو — يطلب مدداً من الخليفة ، فتأخر . وفى أثناء ذلك فكر عمران فى خلع الطاعة ، ودعا ابن الأغلب إلى أن يفعل فعله ، فأبى ، فكان الخلاف .

(١) المراد فحص تونس ، وهو السهل المحيط بها .

(٢) الأصل : وسقطت عليها ، وما أثبتناه أوفق للمعنى .

(٣) فى الأصل : هوى ، وقد قومناه للمعنى .

وأما ذكرك الفحص فإن تركتُك حتى تصير إليه فأنا فى مثل جلدك »[١]

وكتب إليه :

بلِّغْ خُرَيْشاً بأنى سوف أصْبَحُهُ كأساً سيقرعُ منها سِنَّ حَيْرانَا
تُهدِى الطِّعانَ له سُمْرٌ مُثقَّفةٌ تَفرِى أسِنَّتُها فى الحربِ أعدانا
مِن كُلِّ أزرقَ يغتالُ النفوسَ بهِ يضحى به مِن دَمِ الأجوافِ مَلآنا
وسوف تَعلمُ هل ألقى السَّوادَ إذا أرْسَتْ إليكَ المنايا حين تلقانا
إنى سأهدى إليكَ الموتَ فى عطبٍ فاشربْ منيتَه مِن كفِّ عِمرانا

ثم بعث إلى عمران بن مُجالِد[٢] يحضه على قتاله ولقائه قبل خروجه من تونس ، وأوصاه بما يعمل . فلقيه عمران بِسبْخَة تونس ، فانكشف خُرَيْشٌ وأصحابُه وقُتل ، ودخل عمرانُ تونسُ يتتبعهم ويقتلهم حتى أفناهم / وكان خروجُه [٣٠ ب] سنةَ ست وثمانين ومائة .

٣٥ — عمران بن مُجالد بن يزيد الرَّبَعِى

ثار على إبراهيم بنِ الأغلب ، وكان قبلَ ذلك فى طاعته ومُناصحته ، وحضر معه قتالَ تمّام بن تميم ، وخرج نائباً عنه لقتال خُرَيْش بن عبد الرحمن المذكور آنفاً . ولما قوِىَ أمرُه أتى بعسكره حتى نزل بين القيروان و بين قصر إبراهيم ،

(١) الأصل : حلدك . وابن الأغلب يريد أن يقول أنه إذا تركه يصل إلى فحص تونس أصبح مثله ، ولهذا أصلحناها إلى « جلدك » وكذلك فعل ماركوس مولر ويجوز أن يكون : حايك

(٢) فى الأصل : مجاهد ، وهو خطأ كما سترى فى ترجمته التى تلى هذه الترجمة . وهو عند ابن خلدون : عمران بن مجالد (٤/١٩٦) وعند النويرى : ابن مجالد ، وفى نسخة : مُخالد (ص ١٣٥) وعند ابن الأثير : ابن مخلد (ج ٦ ص ١٠٧ من طبعة تورنبرج بأوبسالا بالسويد).

وصارت القيروانُ فى يده . وبعث إلى أسد بن الفرات ليخرج معه فأبى أسدٌ وتمارض ، فبعث إليه : « إما أن تخرج وإلا بعثتُ من يجر برِجلك ! » فقال أسد : « والله لئن أخرجتَنى لأنادِيَنَّ فى الناس : القاتل والمقتول فى النار ! » فتركه عند ذلك .

وخندقَ إبراهيمُ حول مدينته[1] ، ودامتِ الحرب بينهما سنةً . ثم ضعُف عمران فهرب إلى ناحية الزاب ، وسأل الأمانَ — هو وعَمرو بنُ معاوية وعامر ابنُ المعمر — من إبراهيمَ ، فأجابهم إلى ذلك .

وبقى عمرانُ بالزاب إلى وفاة إبراهيم ومصيرِ الأمر إلى ابنه أبى العباس عبد الله ، فكتب إليه عمرانُ يسأله تجديدَ الأمان فأمَّنه وأسكنه القصرَ معه ، وكان يغدو عليه ويروح إلى أن سُعِىَ به ، وقيل لعبد الله : « هذا ثار على أبيك وحالُه حالُه » . فبعث إليه فى الظهيرة ، فلم يشُكَّ فى الشر . وكان عبدُ الله قد قال لمولًى له : « إذا وَرَدَ علىَّ وهو مشتغل بالنظر فلا يَشْعُر إلا وقد رَميتَ برأسه » ، فكان ذلك على ما حَدّه . وكان يحيى بنُ سلاَّم الفقيهُ صاحبُ التفسير قد سَفَر بينهما فى الأمان على ماله ونفسه وولده ، فلما قتله وَجِد لذلك وقال : « لا أسكن بلدًا أُخْفِرَ فيه العهدُ على يدى » ، فخرج إلى مصر ثم مضى إلى مكة فحج ، ورجع فلم يلبث إلا يسيراً حتى اعتلَّ ومات ، ودُفن بمصر سنة مائتين . ومن شعر عمران فى حرب إبراهيم بن الأغلب مع تمّام بن تميم ، وقد برز من الصف :

---

(١) مدينته هى القصر القديم قرب القيروان . وهى حصن ابتناه إبراهيم بن الأغلبه لينتقل إليه مع أهله وجنده وحشمه ، إذ كان يخشى أجناد العرب والخراسانيين لكثرة ثوراتهم على الولاة قبله . وقد بدأ إبراهيم بن الأغلب فى شراء الصقالبة والمماليك حتى كوّن منهم جيشاً ، ثم انتقل إلى ذلك الحصن الذى عرف بالقصر القديم ، وأنشأ حوله قصوراً أخرى ومسجداً ومعسكراً لجنده . وابن خلدون يسميه العباسية (٤/١٩٦) .

يا رُسُـلَ الموتِ أنا عمرانُ أنا الذى أنتم له أعوانُ
تُصعَقُ من خِيفتى الفرسانُ يضحكُ عن أيامنا الزمانُ
نحن ضربنا الناسَ حتى دانوا نقتلُ أهلَ النَّـكْثِ حيث كانوا

فخرج إليه رجل من أصحاب تمّام وهو يقول :

ارجِـعْ على ظَلْعِكَ يا عمرانُ قد جاءكَ الموتُ له تَهْتَانُ
/يَسْقِيكَهُ مِن راحتى سِنَانُ والظنُّ يجلو شكَّه العِيانُ [٢١-١]

فشدّ عليه عمرانُ فطعنه فى ثُنْدُوَته فبدا عاملُ الرُّمح من خلفه .

٣٦ ــ عامر بن المعَمَّر بن سِنان التَّيْمى ، تَيْم الرَّبَاب(١)

كان على شُرطة إبراهيم بن الأغلب ، ثم ثار عليه مع عمران بن مُجالد وعَمرو بن معاوية ، والرئاسة منهم فى تلك الثورة لعمران ، إلى أن استأمنوا جميعاً إلى إبراهيم فأمَّنهم . وكان عامر على قسطيلية والياً ، وهو القائل فيما وقع بين محمد بن مقاتل وتمّام بن تميم من الحرب وقيام إبراهيم بن الأغلب بنُصرته :

إذا كُرْبَةٌ شَدَّتْ خِناقَ محمدٍ فليس لها إلا ابنُ أغلبَ فارجُ
أتاهُ بتمّامٍ على بأسِهِ بهِ يُقادُ وقد ضاقتْ عليه المخارج
وقد كان بالإسراف ألقَى سَوادَهُ ولم تختلجْه فى الخلاف الخوالج

---

(١) يريد أنه من تيم الرباب بن عبد مناة لا من تيم بن مرة أو تيم بن ثعلبة بن عكابة بن صعب أو تيم الأدرم بن غالب .

فعاجله بالكيد حتى اصطاده ... وأدركه من بَعدِ ما قِيلَ خارجُ
ولو أنه يَسْتَودِعُ الشمس نفسَهُ ... إذاً وَلَجَتْ مِنهُ عليهِ الولائجُ

وله فى خروج خُرَيْش بن عبد الرحمن بتونس :

لولا دفاعك يا ابنَ أغلبَ أصبحتْ ... أرضُ الغروبِ رهينةً لفسادِ
ولعَمَّنا ذاكَ الخلافُ بفتنةٍ ... تعدو كتائبُها بغير سَوَادِ
قالوا غداةَ لقائهمْ : لا نَنْثَنِي ... حتى نَحُلَّ « الُخلْدَ » من بغدادِ
فمُنوا بأشْوَسَ ما تَزالُ جِيادُه ... تشكو الوَحَى من غارةٍ وطِرَادِ
نخرتْ به سَعْدٌ فأصبح بيتُها ... فوق الفراقد ثابتَ الأوتادِ

ومن ولد عامر هذا حمزة بن أحمد بن عامر بن المعمَّر ، كان أديباً ظريفاً .

وأما أبوه المعمر بن سِنَان فقدِم مع يزيد بن حاتم المُهَلَّبى فى ولايته إفريقيةَ ، وكان زميلَه فى طريقه إذا ركب فى عَمَّارِيَّتِهِ ، لأُنسِهِ به واستماعِهِ من حديثه . / [٣١ - ب] وكان أعلمَ الناس بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها ، وعنه أخذ أهلُ إفريقية حربَ غَطفانَ وغيرها من وقائع العرب .

٣٧ — حمزة بن السَّبَّال
المعروف بالحَرُون

أحد رؤساء القواد وشجعان الأجناد ، وكان له من إبراهيم بن الأغلب آثَرُ مكانٍ وألطفُ محلٍّ ، لِقِدمِ صُحبته إياه وتصرُّفِهِ معه حيث تصرفتْ حالُهُ ، فكان لا يدانيه عنده أخ ولا ولد ولا أحد من عشيرته . وكان والياً على طُبْنَة ،

ووجّهه إلى الرشيد فى القواد المتوثّبين على الولاة بالقَيْروان [... ...](١) ولده ولد إبراهيم يتولون لهم [...](١) إلى قيادةٍ إلى عِمالةٍ حتى انقرضت دولةُ بنى الأغلب . ومن شعره فى إيقاعه بالمذكورين فيه(٢) :

سائلْ بأُبْزانَسٍ عَنّا ووَقْعَتِنا لما صببْنا القَنا نحو ابن مِرْدَاسِ
وَلّى وخَلّى سعيداً رَهْنَ نافذةٍ مِن طعنِ أرْوَعَ للأرواح خَلّاسِ
فإن يتوبوا فقد ذاقوا وقائعَنا وإن يعودوا نعُدْ أُخْرَى مِن الراسِ

وله فى حرب خُرَيش الخارج على ابن الأغلب :

إن غاب إبراهيمُ عَنّا أو حضرْ فإننى أنصُرُه فيمنْ نَصَرْ
واللهِ لا أرجعُ إلا بظَفَرْ ليس يموت المرء إلا بقَدَرْ
وكلُّ مَن خالَفَنا فقد كفَرْ

فجعل ما يَشُدُّ على ناحيةٍ إلا هَدَّها . وبرز فارس من عسكر تمّام بن تميم فى خلافه وهو يقول :

إنْ ظفرتْ كَفِّى بإبراهيمِ هَدَدْتُ رأسَ العزِّ من تميمِ

---

(١) بياض بالأصل . ومن اليسير أن نسد هذا الفراغ ونقرأ العبارة هكذا : «[ثم خدم] ولدُه ولدَ إبراهيم يتولون لهم [من ولاية] إلى قيادة إلى عمالة » .

ويلاحظ أن إبراهيم بن الأغلب بعد أن صار إليه الأمر أراد أن يبعد عن إفريقية كل من كان يخشى انقلابه عليه من وجوه العرب والقواد ، فأرسلهم إلى بغداد حيث سجنوا هناك ، ومن بينهم حمزة هذا مع أنه كان صديقه . أما أولاد حمزة فاشتهر منهم محمد بن حمزة فى حروب أبى محمد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب مع منصور الطنبذى . وقد قتل حمزة فى شهر صفر ٢٠٩/مايو ٨٢٣ فى معركة حامية مع الطنبذى ورجاله فى تونس .

(٢) لم أستطع تقويم هذا اللفظ ، وهو غير مفهوم . وقد جعله مولر« بالمذكورين فيه » وهو تقويم مقبول على اعتبار أن المراد : المذكورين فى هذا الشعر .

obeikandi.com

فلما سمعه إبراهيمُ نادى حمزةَ : « يا حمزةُ ، اخرج إلى هذا الكلب ! »
فخرج إليه وهو يقول :

أحلِفُ بالركنِ وبالحطيمِ ما فيكمُ كُفْوٌ لإبراهيمِ
لَيُصبِحنّ اليومَ كالصَّريمِ

ثم شدّ عليه فقتله .

٣٨ — إبراهيم بن محمد الشِّيعى

/ من أبناء أهل خُراسان ووجوه أصحاب إبراهيم بن الأغلب ، وكان أقرب [٣٢-١]
الناس إليه فى [... ...][1] الداعية أهل خراسان ثم أهل الشام ثم أهل البلد[2] ، وأنفذه رسولا إلى الرشيد وبعث صحبته برسل بهلول بن عبد الواحد[3] المَدْغَرِى ، فدخلوا عليه فى اليوم الثالث من قدومهم بغداد . واستأذن الشيعىُّ هذا فى الكلام بعد أن قال : « يا أمير المؤمنين ، رسولُ سيفك [... ... ...][4] دولتك إبراهيم بن الأغلب » ، فأذن له على إثر هذا فخطب [.. ...][4]. وكان

(١) بياض بالأصل ، نستطيع أن نسده بقولنا : فى [قتال] الداعية . والداعية المشار إليه هنا هو إدريس بن إدريس بن عبد الله الحسنى ثانى أمراء الأدارسة بفاس . وكان بين الأدارسة والأغالبة تنافس وصراع ، وقد رأينا أن إبراهيم بن سالم بن الأغلب كان من المتّهمين بقتل إدريس الأول .

(٢) هذه العبارة على أكبر جانب من الأهمية التاريخية ، فهى تلقى ضوءاً واضحاً على تكوين القوة العسكرية للأغالبة ، وقيمة كل فريق من الفرق التى كانت تكونها . ويضاف إليهم فرقة من العبيد السود كانوا هم الحرس الخاص لإبراهيم بن الأغلب وبنيه من بعده .

(٣) يستحسن أن تقرأ هنا : وبعث صحبته برسل [منهم] بهلول بن عبد الواحد المدغرى.

(٤) بياض بالأصل ، لا يعسر تصور ما ينبغى أن يكون فيه .

بليغاً مدركاً ، وهو القائل فى مجلس ابن الأغلب بالقَيْروان وبدار الإمارة منها عند قدومه لمحاربة تمام بن تميم بعد محاورة حسنة :

لولا ابن أغلبَ أضحَى الغربُ ليس بهِ عدلٌ ولا لبنى العباسِ سلطانُ
عَمَّ الخلافُ قلوبَ القومِ فابتدعُوا إلا خصائصَ أدَّتْها خُراسانُ
جلا ابنُ أغلبَ عنّا كلَّ مُظلمةٍ فيها المُطيعُ بِسُكْرِ الخوفِ حيْرانُ
كادتْ شياطينُ تمامٍ تَرِدْنَ بنا بَحرَ الضلالةِ والتمامُ [شَيْطَ]انُ[1]

٣٩ — عَمرو[2] بن معاوية القَيْسى

هو من ولد عُمَير بن الحباب السُّلَمى أحد فرسان قيْس وساداتها الأربعة فى الإسلام ، وهم : عبد الله بن حازم[3] والجحاف بن حكيم ، وعُمَير بن الحباب المذكور ، وزُفر بن الحرْث . وكان عَمرو بن معاوية [يتولى][4] ناحية القصرَيْن من إفريقية ، وخرج على إبراهيم بن الأغلب مع عِمران بن مُجالد ، وكان وزيرَه الغالبَ عليه فى أموره . ثم خرج ثانيةً على ولده زيادة الله بن إبراهيم — وكان قد ولّاه القصريْن وما إليهما — فتغلب على تلك الناحية وأظهر الخلاف ، فلما ظفر به زيادة الله قتله وولديه الحباب وسكتان[5] ، ودعا أهلَ بيته فشرب معهم ورؤوسُهم بين يديه ، فغضب لهم منصور بن نصر الجشمى[6] المعروف بالطُّنْبُذِىّ — وكان عاملاً على طرابلس — وتابعَه الجندُ ، فاضطربتْ إفريقيةُ

(١) بياض فى الأصل .
(٢) فى الأصل عُمر ولكنه فى بقية النص عمرو فقومته على هذا النحو .
(٣) عن عبد الله بن حازم السلمى انظر الكامل للمبرد ١ / ٢٤١ .
(٤) أضفت هذه الكلمة للسياق ، مستعيناً بما سيأتى بعد .
(٥) سبق أن علقنا على هذين الاسمين . انظر فهرس الأعلام .
(٦) كذا فى الأصل ، وربما كانت أيضاً : الخشنى .

على زيادة الله وحُصِر فى قصره ، ولم يبق فى يده إلا الساحلُ وقابس[١] / إلى أن [٣٢ - ب] قتل منصور واستأنس [. . .][٢] إلى زيادة الله وصَفَتْ له إفريقيةُ واستقامت بعد حروب طويلة وخطوب جليلة .

ومن شعر عَمرو بن معاوية ما حُكى أن بعض أصحاب تمام بن تميم — يومَ التقى هو وإبراهيم بن الأغلب ، عند خروج تمام على ابن المَكِّىّ — برز من الصف وهو يقول :

اليومَ نسقيكم سِوَى المُدَامِ بالبيض يَهْوى حَدُّها بالهامِ
حتى تُخَلُّوا الغربَ للتَّمَّامِ

وبرز إليه عمرو وهو يقول :

من مُبلغٌ قولى إلى التَّمَّامِ حَلْفاً بِرَبِّ الحِلِّ والحرامِ
إنك محمول على الصَّمْصَامِ وقد تلاقت حَلَقُ الحِزامِ

ثم شد عليه فأرداه عن فرسه .

٤٠ — بُهلول بن عبد الواحد المَدْغَرِىّ

كان رئيساً فى قومه ، وهو قام بأمر إدريس بن إدريس الحسنى صاحب المغرب ، ثم تغير عليه وفارقه ورجع إلى إبراهيم بن الأغلب عند ظهوره على إفريقية ، وذلك بتلطُّف إبراهيم فى إفساد ما بينه وبين إدريس ، فجرت بينهما مكاتبات كان فى بعضها مما كتبه البهلول إلى إبراهيم :

---

(١) الأصل : وفاس ، وهو تحريف من الناسخ .

(٢) بياض فى الأصل ، والمعنى مستقيم دون زيادة شىء .

لئن كنتَ تدعونى إلى الحق ناصحاً ... لتَكشفَ عن قلبى ضميرَ خلافِ
لَقِدْماً أتانا عنكَ أنَّك ناصحٌ ... لِمَنْ قال بالصُّلحِ الخلافةَ كافِ
وأنكَ محمودُ النقائبِ عندهمْ ... تُزَيِّنُ ما تأتى لهم بعفافِ
فعَجِّلْ علىَّ رَدَّ رأيى فإننى ... أردُّ الهوى للحقِّ حين يُوافى

فجاوبه إبراهيم بقوله :

عرضتُ على البهلول ما إن أصابَهُ ... تَعَوَّض منه طاعةً بخلافِ
ليركبَ نهجَ الحقِّ ، والحقُّ واضحٌ ... ونهجُ العَمى وعْرُ المسالكِ عافِ
فلا تَتْرُكَنْ رُشْدَ الهُدى لضلالةٍ ... كمُستبدلٍ رَنْقَ الشَّرابِ بطافِ
[٣٣-١] / وبايعْ لهارونَ الإمامِ بطاعةٍ ... تجده على الإسلام خير مكافِ